
قصص
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
الجنتلمان
يُفضِّل القَضايا
الخاسِرة
أحمد مجدي همّام
رواق

الجنتلمان يُفضِّل القَضايا الخاسِرة!

الجنتلمان يُفضِّل القَضايا الخاسِرة !

قصص

أحمد مجدي همّام



إهداء

إلى أبي في عليائه



"يمكن للمحاكاة أن تؤدي إلى الأصالة، قم بتمارين كتابة قصيرة تحاكي فيها أساليب مختلفة. جرّب عشرة أصوات إلى أن تعثر على الصوت الملائم لك، قلّد اليد الواثقة لمعلم كبير. لكن تذكر: فلتكتب اعتمادًا على تجربتك أنت"

جون كوين ـ كيف تكتب رواية في 100 يوم

كُتِبت هذه القصص على سبيل التمرن على الكتابة، لتزييت التروس الصدئة إثر أزمة "رايترز بلوك" ألمت بي لشهور. وبعد قراءة نصائح كبار الكتاب لتخطي محنة "الورقة البيضاء"، قمت باختيار عدة أسماء بشكل عشوائي من أجندة التلفون، لأكتب عن كل منهم ماتيسر..

كيف تثقب وجهك بقصيدة؟

التمرين الأول: مايكل عاطف

في مقهى هادئ ومنزوٍ في وسط البلد رأيت مايكل للمرة الأولى، ورأيت خلقًا كثيرين غيره للمرة الأولى، لكني لا أذكر سوى مايكل، وذلك يرجع للطلّة الخزعبلية التي أدّاها، فميكي وقف يومها في منتصف المقهى ذي الأضواء الخافتة، ومسح بعينيه المكان، ثم اتجه لطاولة تجلس عليها ناشطة حقوقية مغمورة وقبيحة، كانت تقرأ كتابًا عندما سحب الكرسي دون استئذان وجلس، نظرت له بتعجب وعدائية بادية غير أنه سبقها: (آسف، لكن مضطر). ثم أشعل سيجارة وتجاهل حنقها. رجعت هي لكتابها بامتعاض، نفث ميكي دخان سيجارته ثم عزم عليها بسيجارة، رفضت بقرف، باغتها قبل أن ترجع لكتابها:

(أنا قررت إن انتِ خلاص.. صديقتي، وبدل الدخان، أهديكِ شعر:

سأحدثّكِ بصراحة

وأخمّن أنّك ستُفاجئين،

لكنّ ثقتي في فطنتكِ كبيرة

ولذلك.. ربما لا تُفاجئين مطلقًا..

أنا الصديق الكبير، خزانة أسرارك،

أسرارك التي تخص دائما رجالاً آخرين

أقول لكِ: - وليس مزاحًا هذه المرة -

إنك امرأةٌ جميلة

شهيّةٌ وجميلة

لم أعد أحتمل.. سامحيني،

ولتذهب الحكمة إلى الجحيم

إن جمالكِ يعضّني بأنيابٍ حادة،

لا ليدغدغني.. بل ليدميني

لقد تفتّحَت وردتكِ تمامًا،

وباتت تنشر عطرها في كل اتجاه

أنا لا أطمع في قطفها،

لا.. دعيها على غصنكِ الطري اللعوب

تميل.. فتتأرجح أحلامي يمينًا ويسارًا

كم أتمنّى فقط أن ألتفّ كلبلابةٍ حول فرعكِ

وأن ألصق أنفي أخيرًا بميسمكِ النابـ...

هنا قاطعت الناشطة مايكل وهي تتساءل: (لبلابة إيه وميسم مين يابن المتناكة؟) ثم انهبد الكتاب الذي كان في يديها في وجه ميكي، ويبدو أن كعب الكتاب تحديدًا قد رشق في سحنته فانفجر جرحٌ صغير تحت عينه اليمنى.

بعد أن تدخل العاملون بالمقهى وبعض الزبائن الفضوليين، لفض الاشتباك، وشد الناشطة التي أطبقت على حنك ميكي وكالت له لكمات ليست أنثوية أبدًا، ضمد أحدهم الجرح تحت عين مايكل، وهدّأ مدير المقهى ثورة الناشطة التي شخرت وتفلت وسبت لمايكل بالدين والأب والأم ولعنت خاش تاريخ أهله.. بعد كل هذا سمعنا جميعًا الناشطة تقول لمايكل وهو يغادر المقهى مطرودًا: (.. وعلى فكرة، دي قصيدة أسامة الدناصوري يا خول).



الشطحة الأرمينية

التمرين الثاني: ماجدة ميخيتاريان

ضع نفسك مكاني، تذهب للقسم لتحرر محضرًا بسبب موبايلك الغالي الذي اختفى فجأة، تجد لغطًا في مكتب الظابط النوبتجي، تلحظ حركة غير اعتيادية، وتسمع أصواتًا عالية ومختلطة، فيتملكك الفضول، تحاول أن تسأل أقرب واحد يقف بجانبك، فيشيح عنك ويتجنبك، تقول لنفسك (مازالت لأقسام الشرطة هيبتها) بينما تحملق في الجانب المزدحم أملاً في معرفة نوع المصيبة التي سببت هذا الازدحام، تلمح امرأة ستينية على الأرجح، وهي تشق التجمهر حولها، مذهولة، ودموعها في عينيها، تنظر لها ثم تنظر للضابط وأنت تكاد تجن لتعرف لماذا يبدو غاضبًا هكذا، تنظر لها مجددًا ثم تميل على آخر لتسأله (هو في إيه؟)، يتفرّس فيك من فوق لتحت، يقرر أن شكلك فاهم وابن ناس، ثم يهمس بتواطؤ محبب: (الست المجنونة دي عايزة تعمل محضر لجارتها عشان بتصدّر لها طاقة سلبية)!

ماذا ستفعل والنبي؟

وأنا كاتب، لا وظيفة لي ولا صنعة، مجرد أرزقي، أقتات على الكلمات، وأتعيّش من اصطياد مثل تلك النوادر، أتلصص عليها، أراقبها، أحفظها، أعتّقها، أعمّقها لأوظفها في قصة أو فكرة رواية أو

مقال.. ولذلك كان عاديًا جدًا أن أنسى موبايلي الملطوش، وأنسى المحضر، وأجد نفسي أخرج خلفها من القسم، وأتعقبها..

***

بعدما خرجتُ وراءها من القسم، أردتُ أن أتكلم معها بأي شكل، وذلك العفريت القزم، بداخلي، بدأ يشاكسني، قال: لن تعدم طريقة لتكلمها. لذلك ما إن بَرَكَتْ على الرصيف، لتواصل بكاءها الصامت، دخلت عليها دخلة الجنتلمان، هدّأتها بكلمتين، ونعتُّ الناس في القسم بالغجر والبهائم، عرضت عليها توصيلها، وأعطيتها منديلاً لتمسح دموعها، والخالة، المكلومة، قبِلت بدورها، بمزيد من النشيج المكتوم، يدي الممدودة بالخير.

حكت لي في الطريق عن أم سيد، جارتها الدنيئة، البيئة، ذات الأخلاق الرديئة، التي تكسر بخاطرها كلما رأتها، وتعكّر أيامها؛ فمرة وزنك زاد يا أم نسيم، ومرة تؤلب عليها زوجة البواب لتطلب مبلغًا أكبر مقابل غسيل السجاجيد! بل وصلت بها الخسّة بأن تسخر من أصولها الأرمينية، وتقدم لها في عقيقة حفيدها، القرد الصغير، فطائر الكورواسون، التي تشبه هلال الدولة العثمانية، في تلميح فج وغير حضاري، للمذبحة التي ارتكبها العثمانيون في حق أسلافها الأرمن!

(عذبتني، وأهانتني، وصدرت لي طاقة سلبية، أنا تعبت منها يا أستاذ.. تعبت)!

قالت ذلك وغاصت في نشيجها المكتوم.

***

طبعًا أنا اعتبرتها لُقطة، شخصية روائية بامتياز، بوسعي ان أكتب عنها رواية ضخمة، بكعب يملأ العين، بوسعي مثلاً أن أتتبع تاريخها منذ جدها الرابع، المولود في مدينة أرضروم التركية، وصاحب مصنع للبيرة الشعبية. متعقبًا بداية المذابح سنة 1894، حيث أخذ حال الأسرة في التدهور، وصولاً لجدها لأبيها، ستيبان ميخيتاريان، العضو النشط في حركة الطاشناق الثورية، والذي قُتل في المذابح عام 1915، وعُلّق كمسيح مغدور على الصلبان، وهو ما حدا بأسرته وإخوته للفرار. كان لستيبان هذا ولدان وبنت، الابن الأصغر، هو والد ماجدة ميخيتاريان، والذي كان في تلك الأيام طفلاً لايتجاوز التاسعة، لم يكن يعرف لماذا تبكي أمه، ولماذا هم حزانى، ولا لماذا يموتون؟ وأين اختفى أبوه وبعض أبناء عمومته؟.. لا يذكر هاغوب الصغير من تلك السنوات سوى رحلات طويلة في الجبال والصحارى، رحلات استغرقت شهورًا، من أرضروم إلى ديار بكر، إلى ملاطيا، إلى عنتب، إلى الإسكندرونة، مسيرات طويلة، رحل أغلب من كانوا فيها، مخلفين في ذاكرته الطرية، مشاهدًا متفرقة ومضببة.

وصلت أُسَر معدودة من المسيرة الأرمينية إلى حدود بادية الشام الشمالية، فعبروها إلى حلب، مخلّفين وراءهم كل ما كانوا يملكون من الأحبّاء، ومن زاد هذي الدنيا الفانية، وفي حلب، كانت الاستراحة الأولى، ثمانية أشهر، فبفضل النخوة العربية الشامية، التي جعلت الحلبيين حريصين على إخفاء الأرمن الهاربين من القوات العثمانلية، وبفضل تمرّس آل ميخيتاريان في التخفي وتحمل الصعاب، أفلتت العائلة من القتل، ولم يخسروا سوى أحد أعمام هاغوب، هلك في الجبال قبل وصولهم إلى الإسكندرونة. لكن بالرغم من ذلك، لم تكتفِ العائلة الفارّة بالتواجد في حلب، كانوا يدركون أن قرب المسافة بين عنتب وحلب هو ما ضمن لهم النجاة، وعليه، قرروا أن يمضوا جنوبًا لأبعد مسافة ممكنة، فمكثوا في المدينة لشهور، جنَوا فيها قدرًا من المال، ثم هوووب، فص ملح وداب، اختفى آل ميخيتاريان فجأة من المدينة كأنهم لم يكونوا أصلاً، مضوا بالليل ، إلى إدلب، فمعرّة النعمان، ثم حماة، ومنها إلى حمص، قبل أن يصلوا سهل البقاع اللبناني، في رحلة استغرقت شهرًا وأيام، وتم لهم بعد أربعين يومًا من الاختفاء العظيم، الوصول إلى بيروت بسلامة الله.

***

بوسعي أيضًا، أن أرصد رحلة هاغوب ميخيتاريان، من بيروت إلى الإسكندرية، على الباخرة سان بيزيرتا الشهيرة، في أواخر 1928، فالابن الأوسط للمناضل الأرميني ستيبان ميخيتاريان، وصل بيروت مع

أمه وأخويه منتصف العقد الثاني من القرن العشرين، لكن الأم سرعان ما ذوت وماتت، ليتم إيداع هاغوب وأخيه وارتان في ميتم دير بزمار للأرمن الكاثوليك، بينما التحقت أختهما هايكانوش بميتم عشقوت للفتيات الأرمينيات.

هكذا تفسخت الأسرة، وغابت أخبار هايكانوش عن هاغوب وأخيه، قبل أن تقرر الجمعية الخيرية العمومية الأرمينية في 1922 إدماج مؤسستي بزمار وعشقوت في حي الأشرفية في بيروت، في مبنى "كيلكيان سيسوان" والذي كان فيما مضى مدرسة يهودية.

بعد سنوات، ولما غادر هاغوب ميتم بزمار، كان القرار واضحًا في باله، لن يعيش في بلد تستضيفه كمسكين يستحق المعونة، كان بحاجة لبداية جديدة، تغنيه عن سنوات البؤس واليتم والقَشَف، فقرر بعد ثلاثة أعوام من العمل والدراسة، السفر إلى مصر، الإسكندرية تحديدًا، ولو وحيدًا، بعدما فضّل أخواه الاستقرار في بيروت، إذ طاب لهما العيش هناك، وأسسا أسرتيهما. فسافر هاغوب إلى الإسكندرية في نوفمبر 1928 بعد مراسلة بعض الأسر الأرمينية المستقرة فيها..

***

وإسكندرية الثلاثينيات والأربعينيات، فضاء مكاني جذّاب، وأنا لو كتبت عن ماجدة ميخيتاريان، كنت سألغّم حياتها بقصص حب سكندرية، وبرائحة يود البحر، كنت سأغزلها غزلاً في المجتمع الكوزموبوليتاني، خذ عندك مثلاً: هاغوب فور وصوله إلى الإسكندرية،

وفّرت له رابطة الجالية الأرمينية عملاً في محل الصائغ كيفورك صاروخان، وهو عم رسام الكاريكاتير الشهير ألكسندر صاروخان.. وبعد سنتين من الإقامة في عروس المتوسط، تزوج هاغوب من فاتنة أرمينية تُدعى لوريك، وأنجب منها نيللي وأرمن وماجدة ووارتان، الذي اعتاد أقرانه المصريون على مناداته وردان...

نعم، كنت سأكتب كل ذلك في روايتي، وأكثر، كنت سأجعلهم يمنحوا آل ميخيتاريان الجنسية المصرية في 1957، وسأحكي كيف كبرت ماجدة في أسرة متماسكة، تحب الحياة، وكنت سأصف علاقتها بإخوتها، ورومانتيكيتها المفرطة التي قادتها للتورط في قصص حب فاشلة متعاقبة، وكيف مضى بها الحال إلى أن تعيش عجوزًا منسية في شقة بميدان الجيزة، بعدما هاجر ولداها إلى كندا، كنت سأذلّها وأتلاعب بتاريخها، لم يمنعني من ذلك إلا حاجتي للجلوس معها، والتعرف عليها، والاقتراب عن طريقها من مجتمع الأرمن في مصر، وربما اصطحابها في رحلة إلى أرمينيا، وزيارة المتاحف والنصب التذكارية التي تخلد المذبحة، أو ربما كنت سأصحبها إلى أرضروم في تركيا، كنت أحتاج لملازمتها ليالٍ متواصلة، لأدقق عن كثب، وأتمعّن، وأفهم من هي ماجدة ميخيتاريان.. لكني للأسف لم أفعل ذلك، أهدرت كل فرصي، واكتفيت بتوصيلها إلى شقتها، فقط أخذت رقم هاتفها، لأتصل بها واطمئن عليها، وهو الأمر الذي لم يحدث أبدًا!

الملط

التمرين الثالث: محمود كويتي

كلنا نعرف محمود كويتي، ويمكن لأي شخص من أصحابنا على الناصية أن يدلّك على بيته، ويمكننا أيضًا أن نلخص لك حودة في كلمات ثلاث (العربي ـ مالطا ـ مايو جا) ، فمحمود الذي كنا نراه في الشارع بعد منتصف الليل يتسوّل سيجارة كليوباترا، لم يكن يتسوّلها عبثًا، بل كان يفعل ذلك لأنه لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب إلا بصحبة سيجارة وفنجان قهوة عُصِرت عليه نصف ليمونة شديدة الحموضة.

ومحمود لم يكن يقرأ ويكتب للتسليّة، بل كان يدرس ويجتهد في تحصيل كل المعارف المتاحة المتعلقة باللغة العربية، فحب العربية عنده داءٌ تمكن من جوهره، فقد قضى سنوات طويلة في الكويت، بل وُلد فيها وكبر، وكان كثيرًا مايحدثنا عن ذكرياته الخليجية، وعن جيرانه الفلسطينيين واللبنانيين واليمنيين والسودانيين والمغاربة.. يستعيد تلك الأيام وكأنه يتلذّذ، فتشعر مع حكيه أنه يعاني من سنواته الأولى في مصر، يقارن الشوارع الحريرية بشارع فيصل (نهر الحديد) –كما يسميه– ثم يتحسّر ويعلن اعتراضه بشخرة رقيقة لا تصدر إلا عن شخص هجين مثله..

سنوات محمود في الكويت كانت محصّلتها شابًا خجلاً شبه منعدم الخبرات يعشق اللهجات العربية (المشرقية والمغربية والفصحى طبعًا يا نجم) كما يقول، تشبّع بالمناهج التعليمية التي تقر بوجود أمة عربية على طريقة عبد الناصر، أمة ذات لغة واحدة ودين واحد، عصفت بوجدانه مناهج التاريخ التي تصور الدول العربية على أنها جدار منيع وصلب، تشبه فيه الجزائر نفسها كما تشبه جيبوتي، ويتساوى فيه مواطن يمني من تعز بآخر أردني من إربد.

تشرب محمود كويتي من هذا الإناء حتى التخمة، فانضم لفريق الإذاعة في مدرسته وصار يتلو النشرة الصباحية بعربية فخيمة، ونظّم مباريات كرة قدم وكريكت بين فرق عربية مختلطة وأخرى هندية وباكستانية، كما نظم أشعارًا عمودية قومية، ولما عاد لمصر انضم للحزب الناصري في أولى سنواته بالجامعة، ونشر مقالتين في تجمّعات إلكترونية لطلائع القوميين العرب، وشرح لنا نظريته الوحدوية القومية الأممية، والتي يمكن تلخيصها على أنها اتحادات عربية فيدرالية تندرج تحت اتحادات إسلامية كونفدرالية، الاتحادات العربية تتكون من خمسة أقاليم هي الجزيرة العربية، الهلال الخصيب، وادي النيل، القرن الإفريقي ثم المغرب العربي الكبير، وهذه الاتحادات العربية الفيدرالية تمثل كتلة إقليمية واحدة في الكيان الإسلامي الكونفدرالي، فإلى جانب الكتلة العربية هناك الكتلة التركمانية والكتلة الفارسية (على أن ترجع السيادة على جزر طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى إلى إقليم جزيرة العرب) والكتلة الزنجية وكتلة النمور الآسيوية..

ثم ازداد الطين بلّة عندما بدأ محمود يغطّي كتفيه بغُترة إماراتيّة ذات ألوان داكنة، كما ربى سكسوكة على طريقة السعوديين، وبدأت كلمات من لهجات عربية أخرى تتسرب لكلامه، فإذا سألته عن حاله يقول (باهي)، وإذا فاجأته بخبر ما يندهش ويرد (كيفاش بجاه ربي؟)، وإن لم يكن في مزاجٍ جيد يعلن أنه (مُبْ زين)، وربما يلح عليك ويعلن أنه (دخيل ربّك) كنوع من الإلحاح والضغط الأممي على أعصابك. ومرة تعرضنا بسببه لعلقة محترمة على القهوة يوم غلبته عروبته و تجرأ وشجع الجزائر في كأس العالم بعد الأزمة الشهيرة التي أعقبت لقاء مصر والجزائر في الخرطوم في 2009.

الآن وقد شرحنا الكلمة الأولى في شفرة محمود كويتي، سوف نعرفكم بالكلمتين الأخريين اللتين تلخّصانه، فذات يوم نزل لنا على ناصية الشارع مخطوفًا ساهمًا، سألناه: مالك؟ طلب سيجارة وأشعلها ثم قال: (اتّضح إن اللغة المالطية ليست إلا لهجة عربية! تخيلوا! ثم بدأ يشرح أنه تعثّر على الإنترنت في قصيدة اسمها "مايو جا" كتبها شاعر مالطي اسمه جوفاني فرانشسكو بوناميكو سنة 1493م، وهي بطبيعة الحال مكتوبة بالحروف اللاتينية، لكن المفاجئ في الأمر أنك عندما تنطق تلك الحروف اللاتينية ستجد نفسك في الحقيقة تنطق كلمات عربية:

Mejju gie' bl'Uard, u Zahar
Aadda l bart, e Sceta, u 'l Beracq
T'ghattiet l'art be nuar u l'Uueracq

heda e riech, seket el Bachar
Tar e schab men nuece e'Sema
Sa f'l'e Gebiel neptet el chdura
Regeet t'ghanni col Aasfura

كتب الكلمات التي لم نفهمها، عرضها لنا على ورقة فوجدنا أننا أمام شخص مخبول يزعم أن الكلمات المبهمة السابقة هي لهجة عربية، فما كان منه إلا أن كتب لنا الأبيات بالخط العربي وبدأ يشرح :

مايو جا بالورد والزهر
عدّى البرد الشتا والبرق
إتغطت الأرض بالّنوار والأوراق
هدا الريح وسكت البحر
طار السحاب من وش السما
صفى الجبل نبتت الخضرة
رجعت تغني كل عصفورة

وحكى لنا أن القصيدة تصف فصل الربيع في مالطا، وأنه اكتشف أيضا أن اللغة المالطية ليست سوى العربية الصقلية التي انفصلت عن العربية الأم في مالطا وجنوب إيطاليا في الفترة بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلاديين، وأبدى دهشته من عدم اعتراف المالطيين بأن لغتهم ليست سوى لهجة عربية ضالّة، فهي ببساطة اللغة الساميّة الوحيدة المعتمدة في الاتحاد الأوروبي، واللغة الساميّة

الوحيدة التي تكتب بحروف لاتينية، وأي طفل صغير في النهاية وبعد سماع عدة جُمَل بتلك اللغة سيعرف أنها تمتلك أرضية مشتركة كبيرة مع اللهجات العربية في دول المغرب، إذا تجاوزنا عن احتوائها مجموعة كلمات صقلية وإنجليزية.

بالطبع سخر الشباب من حودة، وفي ثوان تحوّلت (مايو جا) إلى إفّيه متداول بيننا، بينما قرر هو أن يحتفظ بروقان باله لمواصلة أبحاثه، وتسوّل سيجارتين ثم صعد لمنزله. وبعد عدّة أيام أعلن الكويتي أنه سيستغل العطلة الصيفية القادمة لزيارة مالطا والتحقق من الأمر بنفسه، وكالعادة هزئنا منه بجلافة، وكعادته لم يكترث وحاول تغيير الموضوع لكيلا يكون محط سخرية أصدقائنا، وقرر أن يحكي قصته الأثيرة التي سمعناها منه عشرات المرات، والتي لايملّ منها ولا يجد غضاضة في أن يحكيها مجددًا لمجرد احتمالية وجود شخص لم يسمعها من قبل:

"مرة ركبت مع سواق تاكسي، وعملت عراقي، مانت عارف أنا دايما بحب أعمل نفسي مش مصري، قلتله:

- بالله وديني لميدان الجيزة.

بص لي وقال لي:

- انت منين؟

قلت:

- عراقي.

قال :

- أجدع ناس، أنا عشت 8 سنين في العراق، انت منين في العراق؟

ارتبكت، قلت:

- من بغداد.

قال:

- حبيب قلبي، انا عشت 6 سنين في بغداد، منين في بغداد؟

أنا بقا يا جدعان قلت أحّيه، اتزنقت، بلعت ريقي، وفي الثواني اللي بلعت فيها ريقي سمعت عم علي بن الجهم بيقول:... انتو عارفين علي بن الجهم ؟ دا شاعر قديم فشخ، وله بيت مشهور قوي بيقول:

عيونُ المها بين الرّصافةِ والجسرِ جلبْنَ الهوى من حيثُ أدري ولا أدري.

قمت قايل له:

- من الرصافة..

آه والله، وشكرت علي بن الجهم بيني وبين نفسي، ولضمت على طول عشان ما يخنقنيش بقا بالأسئلة:

- آني أبوية ملحق ثقافي بقنصلية العراق في الإسكندرية، وسافرت وِيّاه هْواية، ما رحت للعراق إلا مرة، چِنت صغير..

قال:

- آآه، طب وعلى كدا بتحب الأكل العراقي؟ إيه أكتر أكلة بتحبها؟ أنا كنت بموت في الباجة، وعلّمتها لمراتي عشان تعملها لي كل ماتهف عليا، أقول لها ياحجة.. سويلنا باجة حجي رشيد بن طوبان.. آه والله، كنا نطلع الصبح ولا 30 نفر ونروح على مطعم ابن طوبان، اللي جنب مقبرة الشيخ معروف، وكل واحد مننا يقوم ضارب له ماعون باجة ويطلع يشتغل زي الحمار.

أنا بقا مكنتش بتابع قصة الزفت اللي بياكله، كان شاغلني حاجة واحدة بس، انه يسكت ومايسألنيش تاني، ولمت نفسي لإني ماينفعش أتكلم بلهجة بلد وأنا ماعرفش معلومات عنها، ازاي فاتني ان زِبِّليار مصري راحوا اشتغلوا في العراق؟ الواحد بقا المرة الجاية يعمل موريتاني ولا حاجة.. فجأة لقيته بيسأل:

- انت سرحان في إيه يا باشا؟ ماقلتليش إيه أكتر أكلة بتحبها؟

أنا بقا اتبضنت.. قلت له:

- يابة گلت لك إني مارحت للعراق.

قال:

- ولا كلت أكل عراقي؟ دانت فايتك نص عمرك.

قلت له بيأس:

- اوگف على صفحة.. على جنب.. على جنب.

ونزلت وانا قرفان.

بعدها بكام يوم بقا قررت أعمل تونسي، وهات لي بقا مصري اشتغل في تونس.. ركبت يا عم وقلت له (نحبو نمشاو على الجيزة) واشتغل الحوار المعتاد :

- انت منين؟
- من تونس.
- أوباا.. تونس الجميلة.. تونس الخضرا.
- يعيشك.
- المصريين بيحبوا تونس على فكرة.
- آيا صحيح؟
- طبعًا صحيح.شفت حضرتك آخر ماتش بتاع الزمالك والإفريقي؟ أنا أهلاوي على فكرة وكنت بشجع الإفريقي.. والله ماكنتوا تستاهلوا تخسروا.. انت أفريكاوي؟
- لالا راني مكشّخ نشجع في الترجي.
- أوباا، ترجي يا دولة، ولاد عم الأهلي.. الله يرحمك ياهادي يابن رخيصة.

أنا بدأت اصدع، وسبته يرغي وقعدت أفكر: هو ليه كل سواقين التاكسي كدا؟ كلهم متحالفين على ديك أهلي عشان يكفّروني، بدل ما يسألني عن البلد وأهلها بيكلمني في الكورة؟

سأل:

- هو رئيس تونس اسمه ايه؟
- زين العابدين بن علي.
- الله! مش دا ابن سيدنا الحسين؟
- لا، هذاكة علي زين العابدين بن الحسين.
- آآآه صحيح. رضي الله عنهم جميعا....قول لي بقا هتشجع الأهلي ولا مستقبل المرسى؟
- شنوّة مستقبل المرسى؟
- إيه؟
- معناها مين مستقبل المرسى؟
- الله! دانت شكلك ترجاوي أي كلام، دا فريق في الدوري التونسي
- ياخويا أنا نحب نتبّع في البطولات الأوربية.
- أكيد طبعًا الدوري الفرنسي.. مانتو فرنساويين إلا حتة.
- آش تقول بالله؟ يارسول الله توة رديتونا فرنساوية؟! أهاوكا قاعد نحكي معاك بالعربي من وقتلي شدّيت بلاصتي معاك. آه يا زبي قالوا فرنساوية!
- إيه يا عم الكلام دا انت هتزعل ولا إيه؟
- ربنا مايجيب زعل كيما تقولوا.
- أوباا.. دانت كدا بقا بتتكلم تونسي ومصري

قلت بفخر:

- طبعًا.

قال:

- ومن أسبوع كنت بتتكلم عراقي يبقا كدا تلات لغات في الباسكت.. يابن الإيه!

وماقدرتش أبلع ريقي المرة دي، غصّة مريرة يا معلم، صدفة ماتحصلش حتى واحد في العشرة مليون، الكلام اتحشر في زوري وأنا كنت حاسس اني عايز أعيط، نفسي الأرض تتشق وتبلعني وترحمني من السواق ابن المرة دا:

- ياسطا أنا أبويا عراقي وأمي تونسية وعلى جنب لو سمحت..

هذه القصة الأشهر، وهي الأشهر لأنها الوحيدة لدى محمود كويتي..

بعد شهور فاجأنا محمود وهو يحمل حقائبه ويعلن أنه متجه لمالطا، حيث أنه حصل على منحة من مؤسسة روبرتو سيميتّا للتبادل الثقافي والتي تدعم الإقامات الفنية بين البلدان المتوسطية، قال إنه سيقوم بعمل ورشة لمقارنة الشعر العربي والشعر المالطي بداية من أول قصيدة مالطية مكتوبة (الكانتيلينا - بياترو كاشارو 1470)، ثم سيقوم رفقة شاعرة مالطية شابة بتقديم دراسة عن الشخصيات الشعبية الأسطورية في الثقافتين المالطية والعربية، كما سيقومان بكتابة أول نص مشترك بين لغتين هما في الحقيقة لغة واحدة..

من بعد تلك السفريّة، كف محمود عن قضاء الصيف معنا كمقاطيع على الناصية أو متسكعين في وسط البلد أو مصطافين في الإسكندرية.. فقد صار يسافر كل صيف لمالطا. ومرة عاد من هناك رفقة حسناء قلبت الشارع وصارت موضوعًا مميزًا للنميمة. وذات خميس دعانا الكويتي لحفل خطوبته على صديقته المالطية إيلين كاميليري، ثم دعانا في الصيف التالي إلى زفافه، ثم ودعنا يومًا وسافر إلى مالطا ولم يعد.

ومن يومها، كلما مرّت سيرته في وَقْفتنا على الناصية أو في نزهاتنا في وسط البلد وسهراتنا على الكورنيش، كنا نتذكّر تركيباته اللغوية المتقعّرة أو التي بدت لنا كذلك، كما أطلقنا عليه حودة المالطي بدلا من حودة الكويتي، وبمرور الوقت تحوّرت الكلمة فصارت حودة الملط..

ترى أين أنت يا حودة؟



نوفيللا عن أبي.. أقصوصة لأمي

التمرين الرابع: البيت ـ أبي، أمي

(ا)

أبي مثلاً..

كنا نمسح دموعنا
ونقول: "لا يهم
حين نكبر سنكسرهم أيضًا"
إلا أنهم
وحينما تأتينا الفرصة المناسبة
ينكسرون،
من تلقاء أنفسهم!

عماد أبو صالح

تصدر عن الحاج رائحة كريهة عندما يمر بحالة نفسية سيئة، وتنتشر حبوب مدببة بلون القرنفل لها نهايات دموية على ظهره وجنبيه وكتفيه، أما إذا كان في مزاج رائق، يبدأ بحكي مواقف لا يغيرها، ست أو سبع حكايات يدور في فلكهن، يذكرونه بحياته في الغربة وشبابه وأيام عزِّه، وعندما يلتقي بأناس لا يعرفهم، يحرص على استعراض

ثقافته وقاموسه اللغوي، يدس في السياق كلمات إنجليزية تشعرك بأنك تتحدث إلى متخصص، يرثو فرانك سيناترا والبيتلز ويمتدح أنتوني كوين وكلينت إيستوود. يهاجم الحداثة ويطلق حكمًا نهائيًا بالفشل على كل الممثلات الشابات، يقول: آخر واحدة مثلت نجلاء فتحي. يرفض أن نسمّي قصيدة التفعيلة شعرًا ويتساءل بثقة مجوّفة: كيف أستشهد بسطر يقول "وكان وكان.. وغُصّ القلب بالأحزان؟" يعني الست فدوى طوقان عايزة تقول إيه؟ دول يابني شعرا معرفوش ينظموا شعر موزون فكتبوا خواطر وسموها شعر!

يشتري الأهرام والمصري اليوم كل ليلة وهو راجع من الشغل، يأخذ حقنة الإنسولين فور دخوله البيت ثم يتناول العشاء، يسهر من الثانية عشر وحتى الرابعة موزعًا مجهوده بين البرامج الرياضية والأفلام، يشجع أبي الأهلي بحماس، وينحاز له ويمنطق كرهه للزمالك، يسيّس الكرة ويشخصن الأمور ويخلط الأوراق لأجل الأهلي، يتابع المباريات في البيت أو في الشغل. يتهمني دومًا بأني (واخدها عافية ومابفهمش كورة).. وعادة تنتهي أغلب جلساتنا المشتركة أمام المباريات بطرده لي وإجباري على متابعة الماتش في الشارع.

قبل خمس وثلاثين عامًا كان أبي شابًّا معتدًا بنفسه، يقول أن أصدقاءه كانوا يسمّونه (كرنفال العجوزة)، ويزعم أن شلته كانت الأشهر في مربع العجوزة والدقي والزمالك والمهندسين، هو ورشاد

الطلياني و مجدي قزعة وجورج عاطف وعمي مراد وسليم المسلّمي ابن أشهر مقرئي البلد، وبمناسبة سليم، يقول أبي أنه مرة اتفق معه ومع عمي مراد على أن يتقابلوا في حجرة الجنايني في حديقة فيلّا الشيخ منصور المسلّمي، أخفوا عن باقي أفراد الشلة أن معهم شرموطة، وزعوا المهام بينهم، واحد يباشر واثنان ناضورجية، ومثل أي مشروع مبارك، ومع الطلعة الأولى تحديدًا، لمح أبي الشيخ المسلّمي وأحد أصدقائه وهما قادمين من على ناصية الشارع، فأطلق الإشارة، وفي ثواني نُفِّذَت خطة إخلاء يحب أبي دومًا أن يتباهى بنجاحها. دخل الشيخ المسلّمي وأجلس فضيلة الشيخ صديقه في غرفة البستاني، طلب من سليم أن ينادي على أخيه الأصغر لكي يرقيه فضيلة الشيخ ويكشف عليه، فقد عانى هذا الأخير من متاعب نفسية وعصبية أُوّلت في بعض الأحيان على أنها مس. أمر الشيخُ المسلّمي الشبابَ بأن يبقوا ليعاونوا فضيلة الشيخ في رقيته، خاصة أن الابن الأصغر للشيخ المسلمي يتشنّج ويتلوى وتنقلب عيناه ويرغّي. يقول أبي أنه كان ناقمًا لأجل سهرتهم التي نُسِفت، ولذلك سخر من فضيلة الشيخ المعالج وكرشه الضخم، ويقول أبي أيضًا إن فضيلة الشيخ اِجلَهَمَّ في وجهه وقال: (ولد يا همّام، لئن لم تحترمنّ نفسك.. لأسلّطنّ عليك ميمون النكّاح)! يستشهد أبي دومًا بشهادة صديقه سليم المسلّمي، يضحك حتى تدمع عيناه ويتقطّع صوته فيكمل صديقه: راح أبوك سأله وانت عرفت اسمي منين ويطلع مين ميمون النكّاح دا؟ فضيلة الشيخ قال له: (جنّي مهووس بالبعابيص، هخليك تمشي تتلفت وراك يا كلب.. هكهربك)..

يحب أبي أصدقاء العجوزة ويحرص على رؤيتهم حتى الآن، ينسّق معهم ويلتقون في فيلّا الدكتور سليم المسلّمي، يسهر معهم مرة كل أسبوع أو عشرة أيام، يلعبون الكوتشينة ويحكون الحكايات نفسها، يمتدحون أصالتهم ويثنون على أبنائهم الذين صاروا أصدقاء أيضًا.

منذ سنتين أجرى الحاج جراحة القلب المفتوح، ومنذ سنتين أيضًا وهو مكتئب ومهزوم، يفضّل الجلوس في البيت ويعتذر عن الذهاب للشغل مرة أو مرتين في الأسبوع، يتابع قنوات الطبخ وبرامج التوك شو والمسابقات الثقافية والمعلوماتية، يسبق المتسابق بالإجابات ويفاخر بأنه متخصص في كل العلوم والآداب، بيقين يؤكد أنه كتب أبحاث تخرّج لطلاّب في جميع الكليات: من الشريعة إلى الشرطة مرورًا بالتجارة والإدارة والاقتصاد والتاريخ واللغة، ثم يتحسّر ويلعن السفه الذي قاده للصرف دون حساب، يقول (مفيش سيولة) ثم يهرب من بوادر نوبة الاكتئاب ويتباهى بتلاميذه الذين صاروا الآن من رجال الصف الأول في عُمان. ومجددًا يعود ليحكي موقف أو موقفين يهوّن بهم على نفسه، يقول: (طالب في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قعدت أدرّسه المذاهب الأربعة، في أسبوعين شرحت له كل حاجة، وفي آخر حصة في الأسبوعين سألني: أستاذ بوحسين سؤال بس لو سمحت: الرسول كان حنبلي ولا شافعي؟) ويضحك أبي ذات الضحكة ثم يختتم بنفس التعليق: (قلتله الرسول كان شيعي، ولا أقول لك، كان بروتستانت..وسبته ومشيت!)

منحنيات هابطة

يتهمني الحاج دومًا بأني فاشل، وأنا لا ألومه، لكني صرت أتضايق مؤخرًا بعدما صعّد أسلوبه ضدي وصار يتهمني بالفشل في الكتابة حتى، يقول لي: الأدب دا هواية، ومبيأكّلش عيش.. وانت روايتك الأولانية.. انت عارف بقا، والتانية صحيح اتكتب عنها شوية بس بردو مكسبتش منها غير منحة وزارة الثقافة!

أتألم بدوري في صمت، أشعر بقهر ولا أجد ردًا مناسبًا لحقائقه الصارخة! أبحث عن طريقة أتفادى به غضبه وسخطه، أفكر أن إلهاءه هو الحل الأمثل، أطلب منه أن يساعدني في كتابة تقرير عن صحافة التيارات الدينية، ينتفخ هو من إقراري الضمني بحرفيته وسعة علمه ويشرع فورًا في قراءة الصحف الإسلامية وتدوين ملاحظاته عليها.

منذ ست سنوات أنهى أبي رحلة اغتراب دامت ثلاثًا وعشرين سنة، صفّى عمله ورجع للاستقرار في البلد، بعد شهر من عودته تعرّض أخي لحادثة كسّرت جمجمته وفكّيه، كبّدتنا الحادثة قرابة التسعين ألف جنيه، وبعدها بثلاثة شهور مات عمي مراد، فتكفّل أبي بمصاريف بناته، ثم تزوجت أختي فتكبّد أبي دفعة مصاريف أخرى، ومع زواج بنت عمي بدأ أبي في حملة البيع، فبعد بيعه لشقة فيصل، اضطر لبيع سيارته، ومع إصابته بالقلب باع شاليه الإسكندرية ليجري الجراحة، وعندما حان زواج أخي باع أبي ذهب أمي، ولما أردت أن أفتح مشروعًا صغيرًا باع أبي نصيبه في شقة جدتي.. ثم لم يبق لأبي شيئًا ليبيعه. لذلك ستجده دومًا من الخامسة عصرًا وحتى الحادية

عشر مساءً يجلس في محل تركيب العطور الرخيصة الذي يشترك فيه مع خالي، يتابع مباريات الأهلي، ويستعرض ثقافته على الزبونات، يدفعهن بسرعة بديهته للضحك وينظّر لهن في فن الشم والتعطر، يستشهد بأحاديث عن حامل المسك ونافخ الكير، ويشرح فلسفة الروائح، يؤكد أبي لزبوناته أن الكوكوشانيل هي رائحة "اليُتم" بينما تمثل البينو سلفستر خريف العمر والنضج الذكوري، ويزعم أن حنا مور هو عطر لقاءات السرير..ويختم برنامجه الاستعراضي بذكر العطر ـ يصر الرجل على أنه فيلم ويتجاهل حقيقة الرواية ـ ثم يعرج على رواية روائح ماري كلير..

حكايات من أبي

من الحكايات المفضّلة عند أبي قصة صديقه الهندوسي أفضاب، ففي مساء شتوي ذهب الحاج للمبيت في العمل محمّلاً بأطباق يخنة ساخنة أعدتها أمي، وفي العمل، يقول أبي، أنه التقى أفضاب، ويقول أيضًا أنه لنوازع دفينة لا يدركها هو حتى اللحظة دعا أفضاب لتناول العشاء معه، والثابت من شهادات الأصدقاء أن أفضاب سأل أبي عن نوع اللحم الذي أُعِدت به اليخنة، فأكد الوالد أنها لحم شاه صغيرة وطرية.

لو كنت جالسًا مع الحاج وهو يحكي هذه القصة، تأكد أنه سيصل لهذه النقطة وينفجر من الضحك، وسيضيف أنه انتظر حتى فرغ أفضاب من العشاء، ثم باغته بإنجليزية تشوبها لكنة:

Afdab. Do you know that you have just eaten your god?

وسيقول الحاج أيضا أن أفضاب فشخ حنكه ثم دبّ أصابعه في حلقه وتقيأ ما في بطنه، وربما يجوّد حكايته ويؤكد أن زملاء الوردية تدخلوا ليمنعوا أفضاب من الفتك به. لكن بظني سيخفي أنه تعرض لتحقيق بعد ذاك الموقف وأن ترقيته عُطّلت لسنوات..

ثم سيجفف الحاج دموع الضحك ويباغتك بقصة أخرى لأفضاب، وسيبدأها بمقولة (صدّق يا أخي الهندوس دول أغرب ناس في العالم!) ويحكي بعدها عن صديقه الهندوسي الذي ذهب للشغل يومًا والسعادة طافحة في وجهه، وأعلن بفرحة صادقة أنه رُزِق بمولودٍ جديد، وزّع الحلوى على زملائه وعزمهم على ساندوتشات شاورما الدجاج، ثم استشارهم حول أربعة أسماء يفاضل بينهم لابنه، ولن تفوت أبي الفرصة لذكر تلك الأسماء ومعانيها للتدليل على سعة ثقافته وقوة ذاكرته: ف (أچندرا) هو إله الجبال، و (فراڤاش) تعني الملاك الحارس، بينما (ماهاڤير) هو الشخص فائق الشجاعة، ثم أخيرًا (ساجان) ويعني المحبوب.

يقول أبي أنه لايذكر الاسم الذي رسي عليه الاقتراع، ويقول أيضا أن كل هذه تفاصيل لا تُهِم، والمهم هنا هو تنبّهه لحقيقة أن زوجة أفضاب في الهند منذ سنتين، وتذكيره أيضًا لأفضاب أمام الزملاء بأنه لم يذهب للهند منذ سنتين. ثم سيضحك وستضحك أنت أيضًا معه، إيقاعه سيفرض عليك ذلك، ورد أفضاب التاريخي أيضا سيفرض عليك المزيد من الضحك، لأن أفضاب رد دون اكتراث لملاحظة أبي: (لكن أخي في الهند)!

ومن هذه القصة سيغوص الحاج في حكاياه، سيفعل ذلك بعد أن يبدي اندهاشه من المبادئ الهندوسية، وسيعلن أنه يفضل التعامل مع الغرب عن التعامل مع الهنود.

همّام في بلاد الإغريق

وبالقطع سيحكي لك عن أيامه في اليونان، وذكرياته في الإكروبيلوس، وسيذكر أيام الحب والتشرُّد، أبي حكى لي كل تلك الحكايات، وأخبرني أنه لم يجد عملاً لمدة شهر ونام في الحدائق العامة والحدائق الملحقة بالكنائس، ولكي يتدبر أمره في يوم دخل المقهى أثناء لقاء الديربي الأثيني بين بانثينايكوس وأولمبياكوس، ووقف على طاولة بعض السكارى المتعصبين ورفع العلم المصري ومعه شعار أولمبياكوس فهاج رواد المقهى من مشجعي الفريق وقدموا له الأكل والشراب، وبين الشوطين غادر أبي إلى المقهى المجاور وفعل نفس الأمر مع أنصار بانثينايكوس، غير أنه جمع الطعام في تلك المرة وغادر بصيده الثمين الذي أمّن له يومًا آخر في أثينا.

وعلى ذكر أثينا، لا أشك أن الرجل سيقص عليك حكايته مع مارتينا البلجيكية، سيفرش لك مقدمة عن موجات الهيبز التي اجتاحت أوروبا في الستينات والسبعينات، وربما يستطرد ويكلمك عن آلان جينسبرج وليون تروتسكي ومايعرفه عن التيارات الفوضوية، غير أنه سيعود ويكمل لك وقائع قصته مع مارتينا التي وصلت من بروكسل إلى اليونان مع جماعات هيبيّة مُحبّة للسلام والعقاقير المهلوسة. مارتينا اختارت أن تنفصل عن رفاقها وتستقر لفترة في أثينا، حيث

تعرفت على أبي واختارته للإقامة معها، بل وبدأت تقرضه أموالاً كلما تعثّر ماديًا. هذا ماقاله لي أبي، وهذا ما سيقوله لك، سيشير إلى أنه شك في مارتينا التي لا تنفد ذخيرتها الدراخمية أبدًا، فتتبعها يومًا دون علمها ولحق بها حتى البنك ورآها وهي تسحب كمية كبيرة من أوراق البنكنوت، وبسبب دهشته لم يتمالك نفسه وباغتتها، سألها عن تلك الأموال وأصر أن يرى إذن الصرف. بعدها، سيعلن لك الرجل أن مارتينا انهارت تحت الضغوط واعترفت بأنها ابنة أكبر تاجر خيول في بلجيكا وأن والدها أصر على تأمين حساب مصرفي مفتوح لصغيرته الهيبيّة الطائشة. ستتسارع وتيرة الدراما بدءًا من هذه النقطة، لأن أبي سيختصر الكثير من التفاصيل ليصل بك لما يفيد أنه اتصل بإمبراطور الخيول البلجيكي وأخبره أن بنته في اليونان وأنه مستعد لإعادتها لبروكسل، وسيحدث ذلك بالفعل، سيصل أبي بمارتينا إلى بلادها، وسيقابل تاجر الخيول، وسيثق البلجيكي العجوز في أبي ويكلّفه بالعمل معه، وبعد شهور سيرسل أبي رسالة لجدي يطلب فيها الإذن بالزواج من مارتينا، كل ذلك سيحكيه الرجل بالطبع لو حكى لك عن لياليه هناك في الشمال، ثم سيضيف بحسرة أن جدي أبرق له (أمُّك ماتت، احضر حالاً)، وسيترك أبي الجمل بما حمل ويعود لمصر بقلب مكسور، وسيفكّر طوال الطريق من المطار للبيت في أمه الطيبة التي لم يحضر دفنتها، ثم - أخيرًا - سيباغتك بالنهاية الغريبة، إذ أنه سيقرع باب البيت، وستفتح أمه الباب وتستقبله بصفعة عظيمة على خِلقْته وهي تقول (بقى عاوز تتجوز خواجاية يابن الكلب؟)

حيوانات أبي

أ-

قبل عيد الأضحى بعدّة أيام عقد الحاج صفقة مع راعي غنم، اشترى أربع عنزات، اتضح فور وصولهم أن أحدهم ليس صغيرًا مثلما زعم الراعي، الحقيقة أنه كان قزمًا، كان تيسًا ناضجًا وقزمًا تكاد خصيتاه أن تلمسا الأرض، لايثغو، ولايأكل، ويعاني من هياج متقطّع ولذلك أسميته "سميجل".

في اليوم التالي أصيبت العنزة الأم بالعمى وابيضّت عيناها، وحار صغيراها مع أمهما.

بعد عدّة أيام مات التيس الابن بعدما فشل في التواصل مع أمه العمياء التي لم تعترف سوى بصغيرتها البنيّة.

منذ موت الابن استغل سميجل الحظيرة الضيقة التي خصصها أبي لأضحياته، وصار يقوم بحملات تحرش دورية بالأم العمياء - والتي لم يسمح له طوله بامتطائها - وبالابنة الضعيفة. وصرت أنا أستمتع بتصوير تحرشات سميجل ومقاومة العنزتين بكاميرا الموبايل، وفكرت أن أكتب بحثًا لأستاذ العلوم عن (علم نفس الحيوان المعاق)، بل وأرسلت عدة مرات مادتي الوثائقية لقناة ناشيونال چيوجرافيك تحت عنوان (هياج التيوس)، غير أن فيلمي لم يذع أبدًا.

ب -

ألحّت أختي يومًا على أبي لكي تقتني جروًا، واستجاب الرجل مشكورًا، لكننا في مرة فتحنا باب السطح حيث يعيش الكلب فوجدناه يأكل من كيس الإسمنت الأبيض، وبعد ساعة رقد في إعياء شديد.

أصر أبي أن يعالج الكلب بنفسه، وذكّرنا بأنه خريج كلية العلوم، طلب مني أن أحضر فيتامينات ومطهرات معوية من الصيدلية القريبة من البيت، ثم خلطهما ووضع السائل في فم الجرو المريض. غير أنه توقف قبل أن يضخ الترياق في حلقه، وتوجه مسرعًا إلى صيدلية المنزل، خلط عدة مواد ببعضها، وأضاف الخليط الجديد للخليط السابق، ثم ضخ الترياق في فم الكلب، وأعلن: أمان.. الموضوع آخره ساعة.

وبالفعل، بعد ساعة ذهبت لأرى الكلب فوجدته ميتًا ومنتفخًا!

جـ -

اشترى بطارية لتربية الأرانب وقرر تحقيق الاكتفاء الذاتي للبيت، اختار الأرانب كبديل للدجاج بعد انتشار أنفلونزا الطيور، واختص زوج من نوع فلاندر العملاق بعناية خاصة، غير أن أنثى الفلاندر غافلته وخرجت من القفص، وبدلاً من أن تهرب هاجمته.

أبي حاول الهرب منها غير أن جلبابه أعاق حركته، استغلت أنثى الفلاندر ارتباك الحاج ودخلت في جلبابه، عضت وخربشت كل ما تطاله أظافرها بينما راح هو يتقافز ويصرخ.

أبي جبّر يده يومها بعد أن سقط على بسطة إسمنتية وهو يهرب، بينما انكسر عنق أنثى الفلاندر تحت ثقل جسم الحاج.

مازال..

يحرص الحاج دومًا على تقريعي بسبب إهمالي ولأسباب أخرى لسنا في معرض الحديث عنها. كما يضيق من فشلي في الاستمرار في عمل لأكثر من عدة شهور، منذ عدة أيام طلب مني أن أنضج وأتحمل مسئولياتي، وأخبرني صراحة أنه بدأ يتعب من إعالته لي وأنا أطول من الشحط. وأنا خجلت منه ومن نفسي، وفكرت في الأمر فوجدته محقًا، أصابني الإحباط وشعرت بمدى فشلي وتفاهتي، حتى الصدى الذي حصدته روايتي الأخيرة كان مجرد كلمات في الهوا، القراءات النقدية المنشورة حولها لم تهوّن عليّ أو عليه، هو لم يستخدمها سوى للزهو بابنه، وأنا لم أستخدمها إلا في الترويج لخيباتي!

لذلك حسمت في نفسي قرارًا بمغادرة البيت مع أول وظيفة أحصل عليها، وسعيت لدى بعض المعارف للحصول على عمل كمصحح لغوي في صحيفة تستعد لإصدار العدد الأول، وقد كان.. انتظرت طوال الشهر الأول أحصي الأيام الثلاثين التي تفصلني عن أول مرتب لي، والذي اكتشفت أنه مع منحة وزارة الثقافة كافٍ جدًا لاقتسام شقة رخيصة مع صديق بائس.

بعد عدة أيام من رحيلي عن المنزل اتصل بي الحاج وأعلن أنني يجب أن أرجع للبيت، رفضت، وألح، ثم رفضت فتضايق، وتمسكت برفضي فغضب، ثم تمارض ثم مرض.. فعدت مرغمًا للبيت. وبخني

يومها الحاج كثيرًا ثم بكى، وبكيت أنا أيضًا، فتح ذراعه ليحضنني، فحضنته بشوق وحب متجاهلاً الرائحة الكريهة التي تصدر عنه عندما يكون في حالة نفسية سيئة.

(II)
ثم أمك..

قضين عمرهن كله
في الحجرات الضيقة.
لم يتذكّرن أبدًا
أن ينظرن للشمس
وهن ينشرن الغسيل فوق السطوح

عماد أبوصالح

لا شيء مميز أكتبه عن أمي، ليس لديها ذاك العمق الذي لأبي، لذلك اخترت أن أكتب أقصوصة، سطور قليلة تفي بالغرض، أو ربما تفيض عن الغرض، لأن الحقيقة.. ليس هناك شيء مميز لأكتبه عن أمي.



حرامي ولاعات

التمرين الخامس: سيد حجازي

-1-

- ..وكنت أدير عملي باحترافية شديدة، أقترح خططًا وأناقشها ثم أعتمدها، وأجهز خططًا بديلة، كنت حرامي ولاعات شاطر ومجتهد، أرصد الولاعة الهدف عندما يضعها صاحبها فوق علبة سجائره، ثم كنت أندمج مع الناس بـ 95% من تركيزي، عازلاً الـ 5% المتبقين، لأجل الولاعة، لم أكن أحوم، لا أثير أي شبهة، معي ولاعتي ولا أطلب من أحد أن يولع لي. وفي لحظة مناسبة وعلى الطاير أغافل الجميع وأدسّها في جيبي. كنت أختار ولاعات تخص أناسًا يصعب أن ألقاهم مجددًا، أصحاب أصحابي، والعابرين. أحيانًا كنت أسقّم على ولاعة أحد الأصدقاء، لكني كنت أفشل عادة مع الحذرين، إلا أني ولحسن الطالع، لم أُقفش أبدًا.

الكليبر ليست نوعي المفضل، لكنها المفضلة في السّلْت، إسطوانية رفيعة ومنسابة، كما أنها تحمل عادة صورًا وأشكالاً فنية لطيفة، أما الدجيب، محبوبتي، الصغيرة منها ذات الشعلة المتراقصة، كانت الثانية على قائمة مسروقاتي، عدا عن حزمة متفرقة من

ولاعات البيك، الكريكيت، والبيج موو، والولاعات الرخيصة التي أقتنصها لأني ليس معي ولاعة، أو تلك الولاعات المعدنية ذات النقوش البارزة، التي تليق بالنبلاء.. كل تلك الولاعات التي استطعت ضمها لخزانتي، لم تقني عرضة أن تسرق ولاعاتي ! تطبيق عملي وحاسم لمقولة باب النجّار مخلّع، إذ كنت دومًا عرضة للانسطال في الجلسات، والسطلة كلفتني بعض ولاعاتي الأثيرة.

وعدا عن كل الدواعي السابقة، التي لطالما وخزتني كي أواصل مجهوداتي في هذا الميدان، إلا أن أجلّ وأسمى تلك الدوافع كان السرقة الانتقامية، قصدية أن تحرق قلب أحدهم، من أولئك السمجين ثقيلي الظل الغلاظ، والذين لا يصح الدخول معهم في مواجهات مباشرة، ستفضي حتمًا إلى هزيمة مؤسفة، فمع تلك النوعية، تكون حرب العصابات أجدى، اضرب واهرب، وتفرّج من بعيد على ضحيتك وهو يئن. اعتمدت هذا الأسلوب مع ناشر كتابي الأخير، كان رجلاً متسلطًا وفظًا، مزاجي بشكل إعصاري، كان يعيش وحده في نطاق حزام زلازل لا يهدأ، وانعكس ذلك الاضطراب على تعاملاته مع الناس، وأنا واحد منهم، ولما طلبت منه نسخًا إضافية من كتابي، رفض بصلافة وقال لي (ادفع، زيك زي غيرك)، وأنا ارتبكت ثم دفعت ولملمت كتبي وكرامتي المبعثرة وغادرت ومعي ولاعته التي أهداها له جونتر جراس في معرض فرانكفورت للكتاب في نسخته الأخيرة. وعلى مدار السنة كنت قد سرقت منه أربع ولاعات أخريات، حتى أصيب بما يشبه الانهيار العصبي، وغزته الوساوس وبات يفضل الاستعاضة بأعواد الثقاب

-2-

- في سهرة مع مجموعة من الأصدقاء في شقة أحدهم، رأيت تلك الولاعة الكليبر الساحرة، فقررت أنها لي، كانت سماوية رفيعة بسمك قلم رصاص، مرسوم عليها بالأبيض كائن يشبه الدودة، ومكتوب تحته Spermato، طلّتها خطفتني، والكويئن المنوي عليها كأنما غمز لي بعينه وهو يفتر عن ابتسامة تمزج بين السخرية والشبق، صاحب الولاعة كان صاحب صاحبي، لم أره من قبل، ملابسه لاتوحي بأنه صاحب ذوق رفيع، وفي لهجته شعبوية منفرة، كان يهم بالمغادرة بينما يستبقيه الأصدقاء، راقبته خفية، وخلال ثلاثين دقيقة على الأكثر، كان قد غادر ليلحق بوردية عمل، بينما ولاعته تقف محتضنة ساقي من ناحية، ومن الأخرى يحدّها جوربي..

عادة في مثل تلك المواقف لا يستحسن أن تسارع بالفرار لتثبت على نفسك تهمة لم توجه لك، وهذا ما فعلته، أكملت السهرة معهم على الرغم من الولاعة التي كانت تهرشني، وتضغط علي لأتأملها، وأولع بها سجائري وأحرق الحشيش وأشعل الموقد، بل وأحرق روما بحالها، كانت تضغط علي لأستخدمها وأملأ كفي بحضورها السماوي وبكائنها المنوي الذي ارتأيت أن أسميه "ثروت"، ومن أجل كل هذا تطوعت بالذهاب للسوبر ماركت القريب عندما أوشكت سجائرنا على النفاذ، جهزت قائمة بطلباتهم: سجائر ومياه غازية وشيكولاتات..

غادرتهم، وفي المصعد أخرجت صيدي الثمين ورحت أتأمله: كانت جميلة بحق، رشيقة ولونها زاهي، شعلتها تتراقص فوقها بانسيابية جارية قوقازية ترقص للسلطان، وعندما خرجت من مدخل العمارة، وعاودت إشعالها، بدت الشعلة ـ بفعل نسمة هواء ـ كعُرف حصان يعدو، مشدودة إلى الخلف، إلا أنها متمسكة بمنبتها. كانت الولاعة فاتنة تمامًا، كانت أجمل ما في مجموعتي المنتقاة.

في السوبر ماركت اشتريت الطلبات محتفظًا بغنيمتي في كفي، وعندما هممت بإشعال سيجارة، نظر إلي البائع مليًا وقال:

– حلوة الولاعة دي جبتها منين؟

شعرت بالإطراء؛ فالعرسان يقصدون ولاعتي الجميلة، قلت:

– من إيطاليا.

قال:

– جميل.

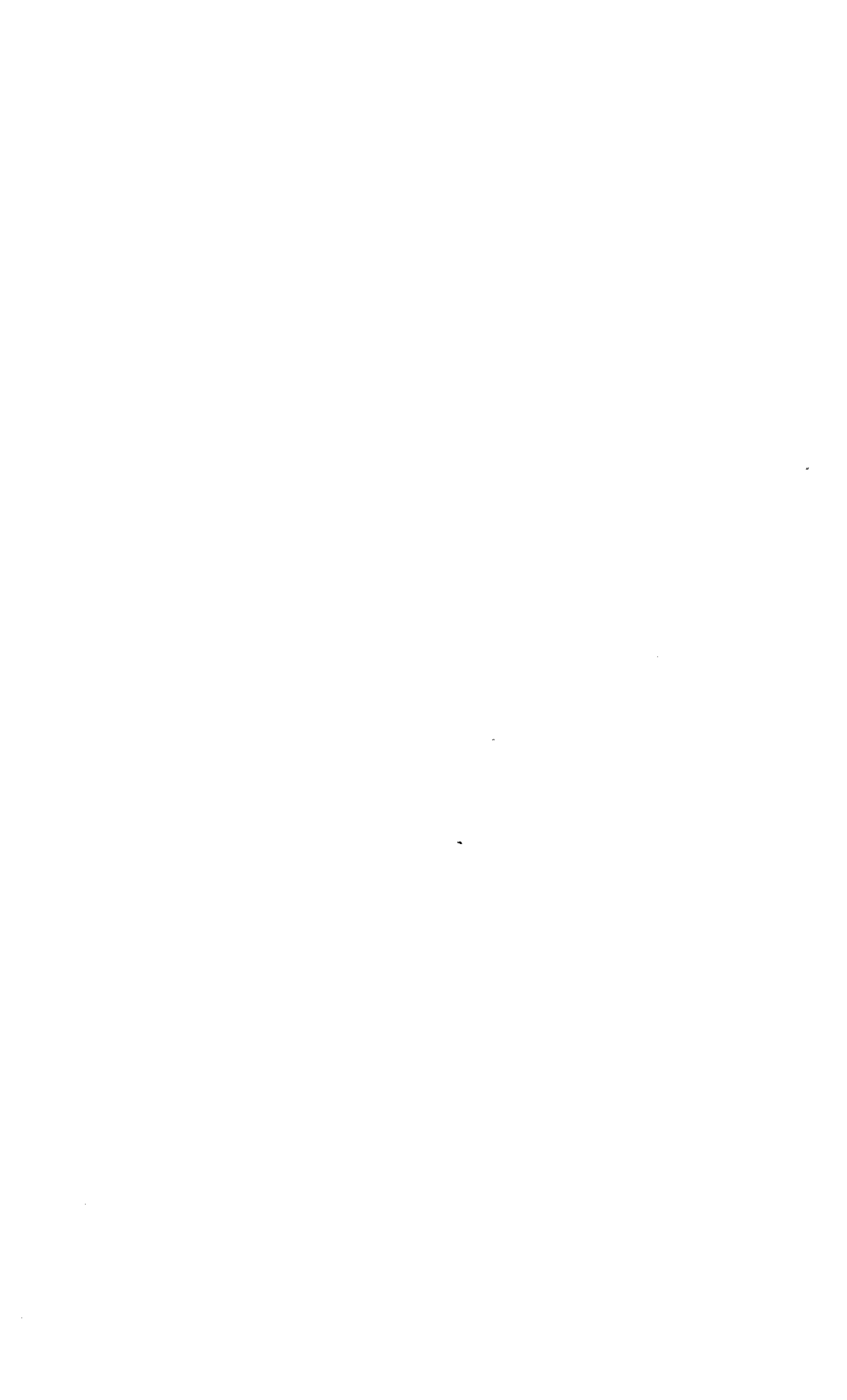
دق زر يقع إلى جانبه تحت رف السجائر، سألني إن كان معي جنيه معدني، فتشت جيوبي، أقبل شخص من باب حائل اللون في آخر المحل، عثرت على الجنيه، ناولته للبائع الذي داهمني:

– مش هي دي الولاعة اللي بتدور عليها يابو رحمة ؟

حملقت فيه لثانية قبل أن أدرك أنه لا يوجه كلماته إليّ، نظرت خلفي لأجد صاحب الولاعة، ارتبكت، قال :

- هو انت؟

ثم ضحك. حاولت أن أقول شيئًا ما فتلعثمت، مد يده فوضعت الولاعة في كفه صاغرًا واستدرت لأغادر، استوقفني، طلب مني ألا أبالي، وقال لي أنه هو أيضًا حرامي ولاعات وأن هذه الولاعة بالذات مسروقة، كان البائع يستمع للحوار الدائر بيننا باندهاش، بينما تمكنتُ أخيرًا من استعادة هدوئي، عزم علي بقطعة شيكولاتة صغيرة فالتهمتها على دفعة واحدة، ثم كلمته عن مجموعتي المنتقاة من الولاعات الكليبر، سحبني من يدي إلى الباب في مؤخرة المحل، وجدت نفسي في مكتب ضيق فيه شاشتي مراقبة، فتح أحد أدراج المكتب، كان يعج بالولاعات من كل الأنواع، ابتسم كاشفًا عن سنّة ذهبية لم أتنبه لها عندما كان برفقتنا في السهرة، نظر إلى عيني مباشرة وقال أننا ولاد كار واحد وأنه لن يفضحني أمام الأصدقاء، ثم عرج على كوني شاعر أو صحفي أو ماشابه ولي برستيجي، لذلك أكد أنه سيكتفي فقط بتجريدي من ولاعتي - بخلاف ولاعة الكائن المنوي التي استعادها - مؤكدًا أني يجب ألا أكابر وأن أتقبل الهزيمة بروح محارب ساموراي مهزوم يسلم سيفه طواعية للفائز. وهذا ماقمت به بمنتهى الهدوء، مثل أي واحد يخشى افتضاح الداركسايد في حياته.



الحادثة النارجوشية

التمرين السادس: أيمن صلاح

مرّة رأيت صورة أيمن صلاح في باب أصدقاء المراسلة بمجلّة عربية، واندهشت من أن جاري وصديق طفولتي يهوى المراسلة وينشر عنوانه ليحظى بأصدقاء جدد، في ثوانٍ تدافعت على رأسي تفاصيل كثيرة ومباغتة، انتهت إلى القرار التالي: سأرتب مقلبًا في أيمن.

تناولت ورقة بيضاء وبيدي اليسرى كتبت بخط تعمّدت أن يبدو مرتعشًا:

(السلام عليكم

كيف حال أنت يا أيمن؟

إسمي أجمالي نور إسلام عبادان، أبلغ عمر/سنواتي 17 عام، أنا من جمهوري ديقراطي نارجوشيا، أسكن في عاصمة بلاد ينج شاري-إينَت، وأنا طالبة أدرس في كلية محاماة/شريعة، عام أول.

أنا منذ سنوات قارئة مجلات وهاوية مراسلة، وأنا رأيت اسمك وصورتك في مجلة زهرة خليج واسع انتشار، واخترت أن نصبح أصدقاء متراسل سويا، لأن عندي نفس الهوايات التي عندك ولأن أنا أحب معرفة أصدقاء من مصر فما رأيك هو؟

اسمح لي الآن سوف أعرّف لك عن بلادي وعن أنا: جمهوري ديمقراطي نارجوشيا دولة صغيرة متناهي وهو تقع في جنوب آسيا الأوسط ليس من بعيد عن كيرجيزيا وجمهوري تاجيكستان، لكن بلادي لها ساحل على بحر كازبيان والذي عرب له يقولون كيزوين. يبلغ نسمات التعدادية (Demography) 900000 إنسان، يسكن معظم منهم في العاصمة، بينما يتوزع باقي النسمات في أقاليم مختلفة في بلادي. تبلغ مساحة إجمالي (غريب جدا: تُكتب هذه الكلمة بشكل يشبه كما تُكتب إسمي بلغة العربية!) 10.500 كم2 وتضاريس بلادي جبالية، يمر في بلادي نهر "Baxııı " وأنا لا أعرف كيف كتابة اسم النهر بلغة العربية، وهو نهر مياهه عذبة وصافي. اللغة في بلادي هي الخليط من ثلاثة لغة آخرون: التاجيكي الإيرانيان والروسي والتوركماني، وتعرف هنا باسم Modern Nargoshian.

هذا عن بلادي، أما عني أنا، عندي أخو واحد وأخت واحد، أخو أكبر يعمل في الزراعة ويمتلك أشجار كثيرة، وأختي أكبر هي زوجة وأم أطفال صغار، وأسرتي نحن من الأصل من جمهوري إيراني من العرب في منطقة أهواز غرب جنوب، وقد هاجر الأسرة عام 1928 بعد ثورة الأهالي العربيون في منطقة أهواز العربية (ثورة الحويزة جدي يقول) ضد شاه إيراني، لكن شاه قتل ناس كثيرين، فهاجرت أسرتي إلى نارجوشيا الذين كانت خلال وقت ذلك تحت حكم سوفييت ثم حدث استقلال بلادي قبل أحد عشر سنوات مع انهيار المتحد السوفييت.

ربما الآن أنت أدركت كيف أجيد الكتابة العربية رغم أنني من بلاد بعيد جدا عن مناطق العربية، فجدودي أنا هم أصلا من العرب، ويمكنك قراءة الكثير عن منطقة أهواز العربية وعن مضايقات إيرانيان لها وكثير تحرشات عنصرية ضد ذلك مقليم عربستان.

أنا أحب أن يجمع العملات، وأنت كذلك تحب أن يجمع العملات، وأنا أرسلت لك عملة بلادي عشرة ساماني، ودولار أميركي واحد = 119 ساماني، فما قيمة عملة بلادك هي أمام ساماني نارجوشي واحد؟ وأنا أيضا أمارس رياضة سباحة ورياضة تينيس، وقد قرأت في المجلة أنك أنت تمارس كرة قدم، وأنا أحب كرة قدم وأناصر فريق مفضل لدي دينامو ينج شاري-إينَت رغم أنه دائما هزيمة أمام منافس نارجوزيش إستاوا، لكن هذا مسألة إنتماء، فممتلك الفريق هو أيضا رجل أصول له من أحواز عربستان، فهنا في نارجوشيا تجد نسبة 1.2% من إجمالي هم عرب، من أصول أحواز ومن أصول غير أحواز حضرموت من التجار المهاجرين ويقال لنا (أَرَبْشا).

أنا اخترت دراسة المحاماة/شريعة لأن عند مستقبل رائع خصوصا أنا أجيد عديد لغات من لغة العربية ولغة إنجلش ولغة الروسية وفضل السبب يرجع لأصول أسرتي.

أيمن أتمنى ألا أكون فعلت إطالة ضدك، وأتمنى مسامحة منك لأني لغتي العربية ليس مع مايرام، لكني والله دائما يخضع لدروس لأن بابا يحب كثيرا أن نحافظ على أصولنا وديننا، وهو يجيد لغة العربية أفضل

مني جدا، وجدي له الرحمة كان يتحدث لغة العربية مثل كل العرب في المناطق البعيدة العربية.

السلام عليكم

أجمالي نور إسلام)

بعدما فرغت من كتابة الرسالة التي رأيتها متقنة، بالغت في تجويد خدعتي، وسحبت عملة يوغسلافية قديمة على سكانر ثم زورت اسم البلد والعملة ودسست بعض الحروف الغريبة، وطبعت الورقة بعد حساب دقيق للقياسات ليأتي الوجه والظهر متناسقان، ثم قصصتها. وأخيرًا رششت رذاذ ماء على الورقة وكويتها فبدت مثل أي جنيه ورقي مهترئ ومتداول.

فعلت في الطوابع والأختام مثلما فعلت مع (الساماني العشر) ، طبّقت الرسالة بعناية ووضعتها رفقة العملة في ظرف، ومن ثم ألصقت الطوابع، أغلقت المظروف بعناية وتسللت للطابق الأعلى وحشرته في باب بيت أيمن وقرعت الجرس ثم هربت.

***

بعد ساعتين زرت أيمن فوجدته منهمكًا في كتابة رسالة، أدركت عندها أن حيلتي نجحت وأن الرسالة الملفّقة والعملة المزوّرة قد أقنعتاه. سألته عن ما يفعل فأعطاني رسالة أجمالي وهو منهمك في كتابة ردِّه،

قلت في عقلي (هذي بضاعتنا ردت إلينا) وتظاهرت بالضحك وسخرت من لغة أجمالي الركيكة، سألني أيمن :

- بس انت تعرف جمهورية نارجوشيا دي؟
- أنا أول مرة اسمع عنها، بس الله أعلم، إنت إيش درّاك؟ العالم واسع يابني، يظهر إنها جنب روسيا.
- طب معاك جنيه؟ أنا عايز ابعتلها جنيه.

ناولته الجنيه وراجعت معه رسالته واتفقنا أنه سيعرّفها في رسائلهما المستقبلية علي بصفتي صديقه المقرّب وسيطلب منها أن تجد لي صديقة نارجوشية. وضع رسالته في الظرف ثم قال لي أنه سيذهب للبوسطة لشراء الطوابع والرد على رسالة أجمالي.

***

أنا لم أكن أعرف أن ذلك المقلب سيكون بداية حياة مختلفة لأيمن، ولو كنت أعرف لما أقدمت على مثل تلك الخدعة التي كنت أراها ظريفة، الذي حدث هو أن أيمن تعرّض لسخرية موظف البوسطة الذي نفى معرفته بدولة اسمها نارجوشيا، وحتى عندما أراه أيمن رسالة أجمالي، أصر الموظف أنه لايعرف تلك البلد، ثم نصح أيمن بالتوجه لبوسطة العتبة الرئيسية، ولأن أيمن لم يكن يمتلك جنيهات كافية ليذهب للعتبة، رجع وقرر أن يرجئ المشوار لليوم التالي. أما أنا فقد أشفقت على صديقي من المشوار، وقررت أن المقلب قد أخذ كفايته وأنه لابد من كشف الأمر. وهنا كانت البداية..

أمام جيراننا وأصدقائنا عايرت أيمن بغبائه وكشفت أمر الرسالة وأجمالي والعملة والطوابع ونارجوشيا، وضحكت وضحك الأصدقاء، وكانت أول كلمة قيلت هي (أيمن يا نارجوشي). دمعت عينا أيمن الذي شتمني كثيرًا وأنا شبه منهار من الضحك، فلم أرد عليه سوى بكلمتين: النارجوشي الغبي!

***

طالت مخاصمة أيمن لي لشهور حتى يئست من أن نتصالح، وكان له كل الحق في ذلك، فقد شاع لقبه الجديد في شارعنا بشكل مدهش، وصار الجميع ينادونه نارجوشي أو نارجوشيا، وحتى المكتبة القريبة التي كانت إحدى مشاريع والد أيمن اشتهرت باسم مكتبة النارجوشي، ثم تطور الأمر عندما وصل الاسم إلى المدرسة وشاع بين الطلاب.

كنت أتابع تلك الأخبار وأحزن على أيمن وألوم نفسي على قسوتي معه، كم رأيته أثناء رجوعي من المدرسة وهو يتشاجر أو يبكي أو يعرج إثر علقة! كنت أعرف يقينًا أن أيمن المسالم والمهذب لا يتشاجر إلا بسبب تلك الكلمة، وكان هذا يشعرني بالذنب، كما كان يمنحني حظوة بين أصدقائي بصفتي المشاغب الأكبر الذي بوسعه سحق الآخرين بلسانه ومقالبه!

زادت شجارات أيمن ولازمته الكدمات والجروح، كما تدهورت نتائجه في المدرسة، وتحول من طالب جيد ومعقول إلى آخر يناضل لكي ينجح، وتكررت زيارات والده للمدرسة بالقدر الذي تكررت به جوابات

الفصل التي وصلت بيته. أما أنا فعاودت محاولات الصلح معه بعدما وجدته قد انطوى وذبل، فوسّطت أمه التي لم تفهم سبب خصامنا، وبعد محايلة وإلحاح وتحت ضغوط عزلته وحزنه اضطر أيمن أن يتكلم معي، وكان أول مافعلته هو الاعتذار له، ثم بدأت حملتي في تحسين موقفي، فصرت أدعوه للمذاكرة معي في البيت مثلما كنا نفعل قبل الحادثة النارجوشية، ورغم جزعي من التدهور المهول في مستوى أيمن، لم أيأس ورحت أوالي محاولاتي للقفز به من عثرته. كما طلبت من كل الأصدقاء أن ينسوا قصة نارجوشيا، وذكرتهم بالآية (ولاتنابزوا بالألقاب).

ذات مساء كنت عند أيمن نذاكر سويًا، وكنت منهمكًا في حل بعض المسائل الرياضية عندما وجدته يسألني:

- تعرف، أنا كتير بحلم بأجمالي نور إسلام.. تخيل؟ بشوف بنت حلوة وشعرها أشقر زي الأمريكان كدا، عينيها زرقا ورفيعة وطويلة، ولابسة فستان سماوي وقاعدة في حتة زي غابة كدا وبتقطف ورد..

عقدت الدهشة لساني لبرهة ثم انفجرت في الضحك، أضاف:

- أنا عارف إنها حاجة تضحّك، بس والله حلمت بيها كذا مرة.
- آآه. وانا كمان عايز أخطب سنووايت وأتجوزها عشان حلمت مرة إني خلفت منها الأقزام السبعة.

ابتسم النارجوشي، فأكملت مبتسمًا:

- بقول لك إيه.. بلاش هَبَل.

لكن أيمن منذ ذلك اليوم، لم يكف عن الهبَل!

***

85% كان مجموعي في الثانوية الذي دعا أبي لأقامة احتفالات كرنفالية، و58% كان الرقم الذي جناه أيمن والذي كان بمثابة الكارثة له ولوالده.. وربما ليس عبثًا أن يكون العدد المعكوس هو المقياس الحقيقي للفرق بيني وبينه في تلك السنوات من حياتنا، فأيمن الذي كان مستواه مقاربًا لي، تقهقر كل تلك المسافة ليستقر في معهد للخدمات الاجتماعية في بني سويف، بينما أرسلني مجموعي لكلية الآداب في جامعة الفيوم.

تعرض أيمن لحملة شعواء من والده الذي ضربه وطرده من البيت وخاصمه طويلاً بسبب فجيعته في ولده وسخطه على خيبته، فبات أيمن عند عمته لليال ثم عندي قبل أن يرجع للبيت مصحوبًا بعاصفة بكاء من أمه المشطورة بين غضب أبو أيمن وحزن ابنها، حتى أمي أنا أشفقت على حال صديقي النارجوشي المنفي، ولذلك انتهزتُ حزنها وجعلتها تقنع أبي بأن نصطحب أيمن معنا في مصيفنا السنوي كنوع من التخفيف عنه وتغيير الجو.

في ذاك المصيف بدأت أطوار أيمن الغريبة تفصح عن نفسها: نوبات البكاء المفاجئ، الشرود الطويل، والرجفة اللاإرادية في جفنيه وخدَّيه التي كانت تند عنه مع الأصوات المرتفعة والمباغتة، ولعل أغرب

مواقفه كان شكواه من جارنا في المصيف، فقد ادعى أن الجيران في الطابق الأعلى يتحينون وجوده في الشرفة ليبصقوا عليه وينفضوا سجائرهم على رأسه وشعره.. الغريب في الأمر أن التاريخ يشهد - بدهشة - أننا سكنّا في الطابق الأخير أثناء ذاك المصيف!

حاولت ستر حماقات صديقي النارجوشي عن أهلي، ورغم ذلك لاحظوا اضطرابه، وكلمني أبي ذات يوم عن أيمن وعن حاجته لزيارة طبيب نفسي، وقد تطوع ونصح أبو أيمن بذلك وصارحه أن الولد يعاني نفسيًا، وكانت تلك النصيحة كفيلة بإشعال غضب أبو أيمن، وبديهي أن أقول أن ذاك الغضب تمت ترجمته في هيئة علقات متواصلة وشجارات كثيرة كانت بدورها تعمل على خلخلة استقرار النارجوشي وتهييج نارجوشيته!

***

كان لقب النارجوشي قد صار واقعًا لا فرار منه، فالدوائر المتداخلة التي كان صاحبنا يقع في مركزها أقرت الاسم الجديد واعتمدته بديلاً للاسم الذي مُنِح له يوم ميلاده، الجيران والأصدقاء وزملاء الدراسة، حتى أيمن نفسه بات يتقبل الفكرة وصار يقدم نفسه على أنه أيمن النارجوشي، وقد رأيت ذلك بنفسي عندما رافقته إلى معهده.

فقد حصل أن اتفق والدانا على تأجير شقة صغيرة لنا في سنورس بالفيوم لتوفير كلفة المواصلات وعناء السفر اليومي، كان مشواري لكليتي لايستغرق مشيًا سوى عشر دقائق، بينما كان أيمن

يقطع النصف ساعة تقريبًا في ميكروباص إلى معهده في بني سويف، كنا نستيقظ مبكرًا ونتجه إلى دراستنا ثم نرجع قرب المغرب للبيت نسهر أنا والنرجوشي وحفنة من الأصدقاء.

في تلك الأيام بدأ أيمن ينحو منحىً جديدًا، وكان ذلك بعدما بدأ في تلقي دروس العزف على العود، فقد تعرف في معهده على صديق يجيد العزف على العود، وفتنته الفكرة والأصوات، فغاص في دروس متوالية، وقض منامي كثيرًا بفضل تنشيزه في منتصف الليل وهو يتدرب على عوده. كان يوقظني لاستمع له وهو يعزف - برداءة - جزء من (إنت عمري) أو (وقف الخلق)، وكثيرًا ما أصر أن أشكل معه (تخت) بأن أتولى النقر على الطاولة أو على جردل مقلوب. تزامن وله النارجوشي بالعود مع ظاهرة بدت لي غريبة وطبيعية في آن، فقد بدا لي حينها أنه بدأ يستعيض بالأصوات التي يصدرها العود عن الكلام، كانت فترات صمته تطول، وكلماته تصير أكثر اقتضابًا بمرور الوقت، وكنت أنا أحاول هدم توجّسي ودفعه للتحدث عن طريق غمره بالأسئلة وإثارة نقاشات غير ذات قيمة. ورغم اقتناعي بأن الموسيقى كانت تمنح أيمن مساحة أوسع للصمت والتأمل السماعي أو التأمل عامة، إلا أن ذلك –على طبيعته– كان مريبًا بالنسبة لي، خاصة وأن النرجوشي بدأ يتهته في كلامه ويتعثر في نطق بعض الكلمات الطويلة أو تلك التي تحمل حروفًا غليظة وهامسة متعاقبة؛ وأدى هذا إلى ظهور لازمة لن تفارق النرجوشي طيلة عمره: (البتاع) أو (البتاعة) أو (البتوع) وكل مشتقات الكلمة، للإشارة لأي شيء أو فكرة أو معنى يقصده.

***

جلسات الكهرباء كانت منعطفًا جديدًا في حياة النرجوشي، لكنها للحق كانت منعطفًا ضروريًا، فصديقي الذي تدهور كثيرًا بسبب رسوبه مرتين وفصله من المعهد، كان قد بدأ في الاتيان بتصرفات أثارت الرعب في محيطه وفي نفوس كل من يعرفه، فبخلاف انقطاعاته المتوالية عن العودة للبيت، و بخلاف العزف على العود في الطرق والشوارع، بدأ الشك ينخر رأس صاحبنا، كما يفعل السوس بالضبط، فيبدو أن أيمن بدأ يشعر أنه مراقَب أو شيء من هذا القبيل، إذ بدأ يتلفت حوله بطريقة تشي بذلك. يضع عوده في جرابه، ويعلقه أمام صدره ويحيطه بذراعيه تحسبًا من أي محاولة للغدر بالعود، ثم يهيم حيثما شاءت له الأقدار أن يهيم.. يجلس على دكّة حجرية في وسط البلد أو على أرصفة شارع السودان، يجوب شارعي الهرم وفيصل وينشط في الجيزة والدقي. وتمتد حدوده حتى مشارف رمسيس في قلب العاصمة، وفي المكان الذي يختاره يجلس ويشهر عوده بفخر وتيه ثم يبدأ في العزف، يلعب ألحانًا لأغاني عبدالحليم وسيد مكاوي وشادية وأم كلثوم، يتحلّق حوله مجموعة من رواد وسط البلد أو السيّاح المهووسين وبعض الصبية، يلتقطون له صورًا وفيديوهات ويضع القليل منهم بعض الجنيهات في جراب العود الملقى تحت رجليه. بينما يواصل هو عزفه بعينين مغمضتين، بتوحد وتماهٍ مطلقين، وبهيبة فنان تشيكي مغمور في العصور الوسطي، فنان يؤمن أن التاريخ سيكتشفه بالتأكيد بعد عشرات السنوات من موته.

وفي الوقت الذي يراه مناسبًا، يفتح عينيه ويرفع ريشته عن الأوتار، يبتسم بتوجّس للمتحلقين، يضع عوده في الجراب ويمضي وهو يتلفت بارتياب.

جلسات الكهرباء الأولى، كانت حيلة أحكمها أبو أيمن؛ فقد حدث أن انقطع النرجوشي عن العودة للمنزل لثلاثة أسابيع، في تلك الفترة أحرق الرجلُ المدينةَ ومشّطَها بحثًا عن ابنه دون طائل، ولما رجع النرجوشي، كان والده قد بيّتَ النيّة على تسليمه لمصحة مرموقة للأمراض النفسية والعصبية، أقنعه أنهم سيذهبون لزيارة صديق مريض في المستشفى وأن على أيمن التخفيف عن الرجل ببعض الموسيقى والعزف، وبكرم بالغ وافق أيمن وحمل عوده على صدره ورافق أباه للمستشفى التي لم يخرج منها إلا بعد سبعة أشهر!

***

ثم إن النرجوشي دخل الجيش!

وهذه نكتة تفوق قصة أيمن طرافةً! هذه أشياء تحدث في بلادي! أن يدخل بعض المعاقين والمصابين بالعشا الليلي والحمقى والمصروعين للخدمة الإلزامية في الجيش!

لكنه - رغم التحاقه بالقوات المسلحة - كان محظوظًا بعض الشيء، فقد كان دخوله للجيش حلمًا بالنسبة له! وثكنات الجيش هي الملاذ الوحيد الذي سيجد فيه نومة آمنة ولقمة بعيدًا عن البيت وعن الحاج أبو أيمن. وقد اكتملت اللعبة عندما أدرك العقيد أن أيمن به شيء لله، ورأى النور الغائر في عينيه؛ فخصّه بمعاملة لينة وأكرمه، وأعفاه من كل التمرينات والطوابير ونوبات حراسة البرينجي والكينجي والشينجي واصطفاه في مكتبه الخاص، يعد القهوة ويحمل الأوراق

والوثائق الرسمية بين مكاتب الضباط. وفي أوقات الروقان والارتخاء يعزف ليلاً على عوده ليرطّب مزاج العقيد.

في الجيش تعلم أيمن بعض الأمور الهامة، وعلى رأسها الادخار، ادخار الجنيهات التي كانت تدس في جيبه ليتوسط لدى العقيد ليمنح أحد الجنود إجازة، أو إدخار المكافآت الدورية وغير الدورية التي تمنحها القوات المسلحة للجنود. كما تولى -بطلب منه- لفترة قصيرة مهام العمل بالمقصف، لكنه فشل سريعًا فترك المهمة -بعد اختلاسات خاطفة ومحكمة- لمن يستطيع القيام بها. ثم طور أيمن من أدائه وعمل بنصيحة أحد المجندين الثقات وبدأ نشاطه في بيع الحبوب المخدرة، تلك الحبوب التي تهون على الشباب أوقاتهم وتحملهم على الإتيان بمزيد من الجهد.

أسر لي أيمن أنه كان يدخر كل قرش يصل لجيبه لأنه قرر أنه سيخرج من الجيش يوم انتهاء خدمته إلى أي مكان غير البيت، وفاجأني بأنه ادخر واحد وعشرين ألف جنيه في عام ونصف حتى حدث ذلك الموقف المدهش الذي كان نقلة أخرى في مسيرة صديقي النارجوشي.

***

ففي إحدى إجازاته تعرف على (محمد الفنّان) في وسط البلد، حيث كان يعزف على عوده عندما اقترب منه شاب يرتدي بدلة مهترئة وقدم نفسه للنرجوشي بوصفه فنّانًا يقدم خدع الحواة وسحرة الشوارع، يخفي الكرة في فمه وبين أصابعه ويخرج حمامًا من مناديل

صغيرة ملونة ويحترف خفة اليد والخدع البصرية. قام محمد الفنّان بتقديم فقراته في حضور النارجوشي الذي أطربته الحيل، وقَبِل بسرعة مشروع محمد الفنّان في الشراكة وتقديم تابلوهات فنية ومعزوفات سريعة، وشرعا من اليوم التالي في التدريبات المشتركة، وخلال أيام كانا قد أقاما عدة سكتشات سريعة جنت عليهما ربحًا معقولاً، كما التقيا بعد إحدى فقراتهما برجل طلب منهما أن يعملا معه في بعض الموالد على مسرح سينصب خصيصًا لهما، ووعدهما بتقديمهما لعتاة الفنانين الشعبيين ومطربي الليالي والحواة الهنجرانية.. فسافرا معه.

لم يخبرني أيمن عن رحلته إلى موالد الدلتا وأيامه في المنصورة ودمياط والشرقية والمحلة، ولم أسأله أنا يومًا، ما أعرفه عن هذه القصة أنه تأخر عن العودة لوحدته في الجيش وكسر أيام إجازته لشهر ونصف، وأعرف أيضًا أنه كان يظن أن العقيد سيقرص أذنه برفق ثم يعيده للخدمة في مكتبه، لكنه فوجئ بمحاكمة عسكرية، واكتشف أنه معرّض بشكل جاد لعقوبة السجن الحربي لمدة تفوق السنة! ولذلك.. لذلك فقط، اختلق أيمن القصة التالية والتي حكاها للقاضي بعينين دامعتين وصوت مرتعش ومتهته:

(روحت البيت يافندم ووملقتش بتاع دا..أمي، سألت الإاخواتي قالوا لي انها في البلد بتبت بتعزي في واحدة قريبتنا، بس لما اتأخخرت ققلقت ووسألت أبويا، أبويا قال لي يافندم وهو بيبيعيط إن أمي هرهر هربت مع بتاع دا.. صبي المكوجي، ولد اس اسمه سعيد، وأنا يافندم خدت اخويا وولاد عمي ولفينا مصر بنبندور عليها).

ولا داعي للقول بأن القاضي العسكري طبعًا أصيب بدهشة بالغة! وله كل الحق، فأنا أيضًا أصبت بدهشة بالغة وبكريزة ضحك هيستيرية عندما حكى لي أيمن هذه القصة، لكن القاض لم يضحك، العسكر لايضحكون. كل مافعله سيادته هو أن أفرج عن أيمن وأعاده للخدمة وجازاه بمنعه من الإجازات لستين يومًا؛ تلك الأيام كانت جحيم أيمن الحقيقي، لأن القصة الملفقة عن الأم الفاسقة مع سعيد المكوجي شاعت في الوحدة، وتناقلها الجنود بينهم، بل وبلغت كتائب أخرى في معسكرات بعيدة. وصارت قصة (ابن الهربانة) علكة تلهي الشباب في أوقات فراغهم، وقد حدث يومًا أن عاير أحدهم النرجوشي بتلك الكلمة، (ياللّا ياض يابن الهربانة)، وحدث أيضًا أن النرجوشي أسرها في نفسه حتى حانت أولى إجازاته، فجمع كل أشيائه ومدخراته وخرج من المعسكر إلى محطة مصر ثم إلى نويبع حيث كان محمد الفنّان قد سبقه ورتّب لهما إقامة مشتركة في كامب سياحي في ركن قصيّ من قرية الترابين. ثم لم يرجع أيمن بعدها أبدًا للجيش، بل ولم يخرج أصلاً من تلك القرية لآخر عمره. لأن خروجه كان سيودي بحياته حتمًا، لأن في تلك الليلة بالذات اقتحم مجند ريفي شاب معسكر الجيش في حالة إعياء شديدة والدم يغطي وجهه وثيابه، ذلك أن النارجوشي كان قد استدرجه لفلاة مهجورة قرب المعسكر، ثم ضربه على رأسه وقص له لسانه ووضعه في ظرف وكتب عليه (اوعى تشتم تاني) ثم مهره بتوقيع (أجمالي نور إسلام).



الرجل الذي أطرى عليه "زي وانج"

التمرين السابع: أحمد محرز

القصة التي يتداولها الأصدقاء ومتشردو وسط البلد والتي شاعت في المدينة وتواترت عبر سنوات هي الأرجح - بعد تجميعها من الأفواه - حسب ظني، وهي على النحوّ التالي:

ضرب أحمد محرز صبيحة أحد أيام مايو جوينت حشيش ثقيل وحاد، ثم أعقبها بواحد بيرة ساقعة ومشبرّة، وبعدها لبس نظّارته الشمسية التي تستر حُمرة عيونه وتعزله عن (الأشياء الحيّة) كما يصفها، وذهب لينتخب رئيسًا للجمهورية. في الطريق إلى اللجنة فكّر محرز في المرشح الذي يستحق صوته، فنّط القائمة واضعًا في اعتباره عدة مواصفات لرئيسه القادم:

1. لا ينتمي لتيار ديني.

مع هذا البند سقط ثلاثة مرشحين دفعة واحدة، خاصة المرشح صاحب النّفْس الملتحية والوجه الحليق الذي كن له محرز بغضًا خاصًا.

2. لا ينتمي لآخر نظام حاكم.

اثنان آخران يلحقان بكتيبة المنبوذين.

3. يمتلك أقل الملفات تلوثًا بقضايا الفساد، أو شريف -إن وجد- صار المجموع تسعة في السلة..
4. ليس كهلاً على باب القبر، ولا شابًا غرًا ومتهوّر.

اثنان آخران خسرا الصوت الفارق للمواطن أحمد خالد عبد العليم محرز.

واصلَ استبعاد المرشحين مع كل بند جديد يضاف في كتالوجه الانتخابي، حتى تبقّى واحد فقط في القائمة، وعليه، قرر أن يمنحه صوته المتكلف والموزون والوطني -حتى الشوفينية- في آنٍ واحد.

محرز اصطف مثل أي مواطن كادح في طابور الناخبين، وأشعل سيجارتين كيلوباترا واحدة بعود الكبريت الأخير، والأخرى من طفية الأولى، واستمع لأحاديث جانبية القليل منها مقنع وأغلبيتها تشارف الهذيان حسب ظنه. وفكّر في انتهاك صمته الانتخابي واستقطاب أي صوت ضال للتصويت لل (نسر) محترسًا من ذكر اسم المرشح كنوع من المراوغة الانتخابية النزيهة. غير أنه فكر في كمية الطاقة الذهنية التي سيبذلها، والتي ستفسد رأسه الموزونة وتدخله في مناهدات مع شعب يختلف معه في أغلب أفكاره ومعتقداته. أضف لذلك أنه تذكر قراره بأن يصبح عدميًا لا يبالي، وفكر لوهلة في مغادرة الطابور لأن العدميين لا يدلون بأصواتهم في الانتخابات، غير أنه اقترح على نفسه أن يكون عدميًا بمرجعية قومية، وبينه وبين نفسه وجد أن فكرته مقبولة برجماتيًا، فاعتمدها.

بعد ثلث ساعة من التدخين والمونولوجات المتكلفة وجد محرز نفسه خلف ستارة ويحمل في يده استمارة طويلة بها بضع عشر اسمًا وصورة لمرشحي الرئاسة.

محرز قرر أن يحافظ على الهِد الظريفة وألا يراجع نفسه، وضع علامة بجوار المرشح النسر، ثم دس استمارته في الصندوق، وفي الحبّارة غمس إصبعين بالعند في الموظفة ذات الشنب الخفيف.

فور خروجه من مقر اللجنة فوجئ محرز بميكروفون يوضع تحت أنفه وأضواء تكاد تحرق قرنيته ومذيعة فارهة الأناقة تسأله بعربية فصيحة

(لمن من مرشحي الرئاسة كان صوتك؟)

***

أصِلُ دومًا إلى النقطة السابقة في القصة وأتمنى أن أضغط pause، لأن ما أريد التعبير عنه يُفضَّل في رأيي تجسيده بصريًا، السينما هي أنسب وسيلة للتعبير عن التفاعلات السريعة التي تمت في أجزاء من الثانية داخل جمجمة محرز، إذ بظني أن السؤال الفصيح الذي طرحته المذيعة استدعى كل ذكرياته الجيّدة والبائسة وأثار عواصف عبر شبكته العصبية.. صور كثيرة توالت أمام عينه وأصوات حادة، المشهد كان ينتهي دومًا ببقعة سواد ضخمة أشبه بخفّاش يفترش الشاشة..

محرز لا إراديًا ضرب بقبضته اليمنى على قلبه ثلاثًا ثم خلع نظارته الشمس ونظر للكاميرا وقال:

(النسر ـ حاول أن يجسد ذلك بيديه ـ صوتي للنسر لأجل شهدائنا، لليتامى والأرامل والصغار الذين أُجهِضت أحلامُهم، صوتي للنسر العالي، لأجل النائحات على من رحلوا والمفجوعين في الوطن اللي بيقصينا ـ دمعت عيناه ـ صوتي للنسر لأجل أمة عربية قوية.. صوتي للنسر العالي، نحن أبناء الغضب الأحمر، نحن جيل يخاف من أمّه ولا يخاف من الدبابات.. كلنا مع النسر).

***

ننهي الـ Pause ونستأنف القصة المتواترة عن صاحبنا بين المتسكعين في وسط البلد.

لازلنا في محيط اللجنة الانتخابية..

بعدما أنهى محرز فقرته وانسحب من أمام الكاميرا، باغته مراهق يحمل في وجهه حبوب شباب كبيرة ومقززة، وقف المراهق أمام محرز بعينين دامعتين وقال:

"أنا أخو الشهيد إسلام رسلان، وانتخبت النسر، النهاردة بس عرفت إن اخويا ماماتش". ثم إن شقيق الشهيد احتضن محرز وبكى وتمخّط في حضنه، قال رجل في أواخر السبعينات: لا إله إلا الله، وحّد الله يابني. وصفّق شابان واقفان على مقربة، في حين اعترض

ملتحٍ سمع الحوار: اتقِ الله يا أخي، النسر هياخدك ع النار. رد محرز: النار دي اللي هتعيشونا فيها يا خونة، صوتي للنسر العالي. ابتسمت امرأة تحمل طفلاً على ذراعها وقالت: (الله يفتح عليك يابني.. الثورة مستمرة) ثم رقعت زغروطة مدوية.

تجمهر بعض المواطنين على حس الزغروطة وبدأوا بترديد الهتافات، ولمعت أضواء الكاميرات مجددًا راصدة قفزة نوعية مفاجئة وغريبة في حياة المواطن أحمد محرز، إذ حصل أن قام شاب ضخم الجثة برفعه على كتفيه، بينما تطوع أحدهم وصرخ في محرز الذاهل المحمول على الأكتاف: ثوّار..أحرار..هنكمل المشوار.. فردد محرز - المرن والمنساب بفضل الجوينت والبيرة - الهتاف.. ورددتها الجموع خلفه.. وكرّرها مجددًا ، فعاودت الجماهير الكرّة مع زيادة ملحوظة في عدد الحناجر الزاعقة..

وجد محرز نفسه مضطرًا لتغيير الهتاف.. فارتجل أهزوجة قصيرة تنتصر لمرشح الجماهير: (آه ياليالي ياليالي.. صوتي للنسر العالي). ليتردد هتافه من مئات الحناجر. فوجئ كل من في محيط اللجنة الانتخابية بالهتاف المدوي والمرعب.

***

في الغرفة البائسة التي يسكنها فوق سطوح عمارة مخالفة ومتهالكة، جلس محرز يلف سيجارتين مستعدًا لمتابعة النتائج الأولية

للفرز عبر الفضائيات، أمسك بورقة وقلم وقرر جمع نتائج كل لجنة على حدة لإحصاء الأصوات التي حصدها المرشح النسر.

حتى منتصف الجوينت الأول لم تكن أي نتائج قد ظهرت على الفضائيات الوطنية، مما حدا به لمتابعة القنوات العربية والأجنبية ذات المصداقية والمهنية والتي راحت توالي بث نتائج اللجان المنتشرة في أرجاء البلاد. كانت فرص النسر قوية، ومع الجوينت شعر محرز بأن الحلم على وشك التحقق، وقرر أن يجلب من الثلاجة بيرة إضافية - كاحتفال - عندما يأتي الفاصل.

في آخر الفقرة الإخبارية، ومع بداية الفاصل، تجمّد عقله لثوان وهو يرى نفسه على الشاشة يتحدث عن المرشح النسر ويضرب على صدره بطريقة مسرحية وهو يقول (نحن أبناء الغضب الأحمر..صوتي للنسر العالي).. كانت الموسيقى التصويرية المصاحبة للفقرة تشبه أغان الحرب، وكانت راية البلاد تخفق في الخلفية بينما حشود مهولة تلتف حول محرز المرفوع على الأعناق.

قبل أن تنتهي الفقرة التي يعلن فيها محرز انحيازه للنسر العالي، بدأت المكالمات تتوالى على موبايله، تحمل خليطًا يستعصى على التحليل من الآراء: كلمات إشادة وسخرية وإعجاب واحتقار، شخرات محلية متعددة التأويلات وزغاريط ودعاء بتسديد خطواته، قالت زميلته في الصحيفة: انت طلعت ثورجي وأنا معرفش؟ وسأله أبوه بغضب:

مش قلنا هننتخب الجماعة يابن الكلب؟ كما تلقى مكالمة من أفراد حملة المرشح النسر وحددوا له موعدًا في اليوم التالي في مقر الحملة، بخلاف ثلاث مكالمات من مُعدِّي برامج في وسائل إعلامية مختلفة تطلب استضافته.

***

يقول أصحابنا في وسط البلد، أن أحمد محرز نفسه يعترف بأن الفضل لما صار فيه يعود للجوينت والبيرة، وتزعم صديقتنا الممثلة المبتدئة أنه يمتلك بار في مكتبه المطل على النيل، في حين يروج ابن خالته أنه يضع في خزنة في شقته نصف كيلو من الحشيش الأفغاني، وارد السعودية، ويحتفظ بربع لتر من زيته.

الحقيقة أن القصة المتواترة بين الشباب ليست دقيقة، هذا ما أظنه، ومايثبت ذلك أن المصادر المختلفة لا تقول نفس الرواية، وهنا جانب من الأقوال المختلفة:

1. أحمد ربيع (زجّال): محرز لما راح مقر الحملة قابل المرشح واتصور معاه واحتفوا بيه، بس بعد كدا اتخانق معاهم لما عرف إنهم بيتفاوضوا وبيساوموا أطراف تانية بعدما عرفوا إن فرصتهم ضعيفة. وهو خارج قال لكل الموجودين في المقر على موضوع المفاوضات.. نزل ومعاه 19 واحد م الحملة قرروا يرفضوا المساومة.
2. أمنية عفيفي (متطوعة في الحملة): مفيش أدنى شك إن الشخص دا مدفوع من جهة أمنية.. مفيش شك، الارتفاع

السريع والمفاجئ بين ظهوره في التلفزيون وبين زيارته لمقر الحملة يخلوني أرتاب بصراحة. ثم ظهوره في البرامج لو ركزتوا هتلاقوه بردو مثير للشك، في البداية كانوا بيقدموه على إنه كاتب صحفي، وبعدين بقا كاتب وروائي وشاعر، وبعدين بقا صحفي وشاعر وخبير استراتيجي وفنان ونشط سياسي!! كل دا في شهرين ونص؟ إزاي؟ والنبي حد يفهمني.

3. حمدي السيد (جرسون في أحد المقاهي التي يرتادها محرز): ليا عنده فلوس والمصحف، بس ماعلينا يعني محرز زي اخويا. بص بقا أنا أقولك المفيد، أحمد شاب غلبان وقلبه أبيض، هو سواعي لما بيقفّل ماتطيقوش، بس والله غلبان وفي حاله، صحابه اللي كانوا بيقعدوا معاه كانوا بيقولوا له يا فنان.. انا مكنتش اعرف انه صحفي، كت فاكره ساكن قريب من هنا. هو صحيح من ساعة ما ربنا فتحها عليه مبقاش بيجي كتير، بس لما بيعدي ويشوفني بيقف ويسلم، ماعلينا من إنه مابيجيبش سيرة فلوسي اللي عنده، بس كفاية انه لسه فاكر ولاد حتته.. الراجل دا مش جاحد يا جدعان.

4. أكرم منير (رسّام كاريكاتير): البلد دي غريبة جدا!! يعني الراجل انتخب واحد وسقط، وصحفي مبيعرفش يكتب جملتين على بعض، وملوش انتماء حزبي ولا رؤية سياسية واضحة، وسبحان الله! يدّي الحَلَق للّي بلا ودان. لو كتب ريّان يا فجل الناس هتقول لك بص التحليل والعمق! عمق ايه ياولاد الزواني؟ لنا الله.

5. خالد عبدالله (قاص من الأقاليم وصديق محرز): شوف، المثل بيقول لك وحدها الأشجار الباسقة ترجم بالحجارة. محرز أحد أهم روافد التيار الوطني، احنا عارفينه كويس.. تاريخه واضح، مفيش فيه نقطة سودا، مش منتمي لحزب ولا حركة ولاجماعة ودا أكبر دليل إنه منتمي للبلد بس، واللي ماسك عليه ورق أو مستندات يتفضل يورينا.

6. رُقيّة محرز (شقيقة أحمد محرز، مدرسة رياضيات): لو افترضنا جدلاً إن القنوات المحلية فاسدة ومأجورة عشان بتُبرز الدور الوطني لأحمد، فهل السي إن إن والبي بي سي واليورو نيوز وفرانس 24 والدوتش ڤيله والقنوات العالمية كمان مأجورة؟ استضافته في مؤتمرات في الدنمارك وأمريكا ودول تانية كتير.. ومع مين؟ توكل كرمان وأحمد هرِمنا ورموز النضال في دول ماظنش إن حضرتك تعرفها أصلاً!! الخرطوش اللي مغرّق رجليه وضهره كمان تمثيل؟ دا أحمد دا شهيد، شهيد الثورة الحي، وفي الآخر تيجي حضرتك تقول لي الإيقاع المتسارع لمعرفش إيه!! أعوذ بالله.. عالم حقودة.

***

لأسباب فنية، أجد نفسي مضطرًا مع تعدد الأقوال واتساع الفاصل الزمني إلى أن أقفز على الكثير من الأحداث والآراء، وأن أباشر حكي قصة أحمد محرز كما أرتأيتها بعد تجميعها من المصادر.

كنا قلنا أن أحمد محرز ضرب جوينت وذهب لينتخب ثم ظهر على الفضائيات وحرّك مشاعر الجماهير، وأنه استفحل واستشرى بشكل مفاجئ وصار علامة بارزة بين النشطاء السياسيين وبعض الفنانين، وبقدر ما أثار هذا التصاعد ريبة البعض بقدر ما يحسبه آخرون تطور طبيعي لمسار مناضل قديم لاينتمي لتيار بعينه، ويمارس حب الوطن في الشوارع والميادين، يكتب آراءه التنويرية في الصحف وتتناقل جدران المدينة كلماته النارية بنقوش فناني الجرافيتي، يكن له اليمينيون كراهية عميقة ويبادلهم هو العداء..

على هذا المنوال نُسِجت أيام محرز بعد تحوّله، يُعَامل كخائن تارة ويُنَصّب أيقونةً في أوقات أخرى، غير أن هذا التباين لم ينعكس على نشاطات محرز السياسية والثقافية والإنسانية، لأن الرجل أصدر ديوانه الأول (سورة الفقراء)، ثم أعقبه بـ (قتيلك يا ميدان) وهو كتاب يجمع بعض مقالاته، يُذكَر أن هذا الكتاب ظل في قائمة أعلى الكتب مبيعًا لشهور. أضف لما سلف الندوات والمؤتمرات التي كان يشارك فيها، والاجتماعات التي كان يجريها مع قيادات الأولتراس، والحركات العمالية، وطلبة الجامعات، بخلاف اجتماعاته مع النخبة الثقافية اليسارية، وهم كائنات لذيذة ونادرة جدًا يصح التعامل معها بالكيفية التي نتعامل بها مع الفلكلور.

اقتحام محرز للتلفزيون لم يكن مفاجئًا، فالبداية كانت باستضافته في البرامج، ثم حدث أن طلب منه مذيع شاب أن يعد له برنامج يهدف لتثقيف الشباب في مجال الحريات العامة وتبسيط المفاهيم

السياسية. وبالفعل باشر محرز مهمته الجديدة وإن لفترة وجيزة جدًا؛ إذ حدث ذات نهار أن اختفى المذيع الشاب من على الشاشة واحتل محرز مكانه بمنتهى الأريحية والشياكة.

لا داعي لذكر أنه كسّر الدنيا في التلفزيون مثلما فعل في الكتابة، خاصة عندما اخترع منهجه التفاعلي، فمحرز كان يصطحب فريقه الفني ويداهم البيوت القحطانة في النجوع والقرى البعيدة، يَنصُب خيمة كبيرة ويدعو السكان بالميكرفون ثم يبدأ محاضراته المبسطة.

القفزة التي حققها البرنامج كانت في نجع بعيد جدًا عن العاصمة، في تلك الحلقة، وبعدما شرح محرز بعض المصطلحات والمفاهيم فوجئ بشجار دامي ينشب بين ثلاث عائلات، سقط فيه ست قتلى وعشرات الجرحى، والسبب الغريب الذي تم الإعلان عنه عصيّ على التصديق، حيث قيل أن كبير آل داود خدع لسنوات طويلة كبار العائلتين الأخرتين بأن حكم آل داود هو تفويض إلهي مذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى (اعملوا آل داود شكرا)، حيث أنه جلّ وعلا لم يقل اعملوا آل الدهاشنة شكرا، أو أعملوا آل أبو دومة شكرا ! ولما فهم المخدوعون مفهوم الانتخابات المحلية وبعض الخطوط العريضة عن الديمقراطية ـ بعد محاضرة محرز طبعًا ـ انتفضا على القوم الظالمين.

الثورة الصغيرة التي سُجّلت على كاميرات الفريق الذي ظل محتجزًا بالنجع ثلاثة أيام، تم بثها لاحقًا في حلقة حققت أرقام متابعة خرافية، وتم وصف المجزرة بأنها دليل على طفرة حقيقية في تفكير

الشعب، وأول تداول للسلطة في ذلك النجع منذ مائة وسبعين سنة، وهو إنجاز حدث على يد أحد المنورين العظماء، الدكتور أحمد محرز (المواطن العالمي) كما أطلق عليه محرّر في التايمز.

***

توثيق:

- (السيد محرز ليس مجرد مناضل في سبيل الحريات، فهو ملهم لشعبه وشعوب المنطقة كلها، لقد تشرَّفَتْ مؤسستنا بمنحه جائزتها لهذا العام، عِرفانًا منا بما قدمه على مدار تاريخه الزاهي والصافي كالمحيط، في مجال دعم الحريات والرفع من قيمة الإنسان). مانديلا فاونديشن لدعم الحريات ـ جنوب إفريقيا.
- (عندما أتذكر شابًا مثل محرز، أعرف أن الرأسمالية العالمية، ليست سوى غول من ورق). زي وانج ـ تشنغاهاي نيوز.
- (قلتها، وأقولها، وسأقولها.. كيف يتحول الحشّاش الخمورجي لمناضل؟ وهل يناضل المناضل في جبال سويسرا وعلى شواطئ المكسيك، في الوقت الذي يموت فيه شعبه غرقًا في الباكبورت؟ اصحوا يا ناس ولا تلتقموا كل ما يلقيه لكم الغرب).

أكرم منير معلقًا على رسم كاريكاتيري يظهر فيه محرز وهو

يلعب في مناخيره بينما تهتف له الحشود (الله ع الحكمة!) - الوطن اليوم.

- (قالها عم فؤاد حدّاد منذ سنين "غير الدم ماحدش صادق" ، وقالها بعده أحمد محرز "دمي، في دورة حياته المحلية رديئة الصنع، من الشريان إلى الأسلفت، إلى بطن الحوت.. ولا عزاء ليونس" وسيقولها كل شعراء الشعب، كل من ينحاز إلى الصيادين والعمّال والفلاحين الكادحين.. لن يضن علينا رحم هذا الوطن بهؤلاء الرائعين الذين أفنوا العمر في صياغة حب الوطن والناس شعرًا) د.شعبان شعلان - مجلة "ألَق" شبه الدوريّة التي يصدرها حزب الجبهة الاشتراكية.

***

منذ سنتين تقريبًا، انتقل محرز للعيش في بيروت، بعد تسميته سفيرًا إقليميًا للنوايا الحسنة في اليونيسيف، وللدقة هو يعيش بين بيروت وروما، ويباشر مهامه الكوكبية بمنتهى الجدية والتفاني، يدعم الثوار في أحراش إفريقيا، ويطالب باسترداد الشعب الكردي كامل حقه بإقامة دولته وعاصمتها "دياربكر"، يدخِّن الحشيش، ويدبِّج بياناته ومراسلاته وتقاريره، يضرب واحد بيرة مشبّرة، ثم يلقي خطبة من خطبه النارية..

وهذه - يا عزيز عيني - قصة صديقي أحمد محرز.. كما وُفِّقت إلى جمعها.. حتى اللحظة.



الأستاذة

التمرين الثامن: هبة عبد الرسول

قبل عدّة أشهر دلّني صديق إلى صفحتها على الفيس بوك، كتبَتْ تعريفًا بنفسها: "أنا لا أكذب ولا أتجمل، أنا بحب السكس، لأننا في مجتمع شرقي ومتخلف مفروض إني أسكت وأكبت نفسي، بينما من حق الذكور في نفس المجتمع إنهم يعلنوا جوعهم الجنسي ويباهوا بيه كمان! جسمي ملكي وأناحرة فيه.

المطلوب:
كل المطلوب منك إننا ندردش هنا أونلاين شوية، نتعرف على بعض، وبعدين نتقابل في مكان عام، ولو حصل قبول وكيميا، ساعتها ممكن نتقابل في مكان مغلق، وأكيد طبعًا انت اللي هتدبر المكان دا.

تحذيرات:
أنا بعمل كدا عشان أرضي نفسي ومش عشان أي حاجة تانية، إياك تعرض عليا فلوس. ممنوع أي تعليق يمس أسرتي أو ديني، الدين أكيد بينهى عن العلاقات الجنسية الحرام، ولو في حد غلطان يبقا أنا.."

قابلتها منذ أسبوعين أو ثلاثة، وكرهتني في لقائنا الأول، أرسلت لي على الإيميل تعلن أنها لن تترك كاتبًا فاشلاً (يحمل أفكارًا إلحادية)

مثلي يلمسها، وأنها تفضل النوم مع بوذي أو كونفشيوسي على أن تنام معي. وبدوري أنا اندهشت جدًا ثم قرفت منها، كانت مجرد مرحاض عام في نظري، بل إني أسميتها (صديقة الطلبة) نظرًا لما تتمتع به من شبق بادٍ وتوحش!

وهكذا، حدث نفورٌ متبادل، ونسيتها، لكن لوقت قصير، فقد اتصلت بي الأمس قبل صلاة الجمعة، وقالت أنها تريد أن تزورني، وأنا، لأني أعرف نفسي، رِمرام وضبعيّ الميول، أخفيت اندهاشي بعرضها وقلت لها "تنوريني".. ونورتني فعلاً، فقد تعرفت بالأمس وعن قرب على أغرب إنسانة عرفتها في حياتي، فتلك البنت، والتي أسميناها "الأستاذة" فنّانة حقيقية، ومُلتاثة كبرى، هي نبيّة مغمورة إن شئنا الدقة. فعلى الرغم من ملابسها التي توحي بدرجة ما من السوقية، وعلى الرغم من طريقة لف الإيشارب الشعبية، وطلاء أظافرها المتآكل عند الحواف، اتضح لي أنها عالمة، نعم عالمة حقيقية، عالمة في "فن الحياة" ، أو في التنمية البشرية ربما، أو في علم المواعدة، أو في العلاقات الأفقية والرأسية على حد سواء. لاأعرف بماذا أسمي ذلك العلم الغامض الذي تبرع فيه، لكنها بالفعل أستاذة، فعلت الأعاجيب التي لم أرها من قبل عبر عمري كله.

لم أوفق معها في المرّة الأولى، لم أكمل دقيقة واحدة حتى، شعرت بشيء من الخزي والخذلان، فهي هنا في مملكتي، على أرضي وبين جمهوري، بينما لم أكن بارعًا بما يكفي لإرضائي أو إرضائها.

وهنا بدأت اللعبة، حاسّةٌ أنثوية عميقة لديها، تمكنت من التقاط ذبذبات الضيق من داخلي، فبدأت –وبشكل فاتن– تغير طريقة كلامها، بدأت العطور تفوح في المكان. وقررت أن تسرّي عني بالرقص. دخلت إلى الغرفة وخرجت وهي ترتدي أغرب ملابس رأيتها في حياتي، فجأة تحول المكان إلى شاطئ في هاواي أو الباهاما. وجدت أمامي راقصة هندية ترتدي مايوه قطعتين، وتزنّر نصفها السفلي ـ الذي برز جماله بغتة ـ بإيشارب أو شيء مشابه، ذكرني شكلها فورًا بالأفلام الأمريكية التي تدور أحداثها على شواطئ هاواي.

.

شيك شاك شوك. ما إن بدأت الأغنية أغلقت الأستاذة عينيها، ودخلت فورًا في نيرڤانا عميقة، لم تكن تتمايل، بل كانت ترسم الموسيقى في الفراغ، أو كانت تفرّغ المكان من الهواء تقريبًا ثم تضخ مكانه انطباعات جسدية عن تعبيرات صوتية! كانت أصغر عُرْبَة في المقطوعة، تجد لنفسها عضلة ما في خاصرة الأستاذة، وتسكن فيها، كانحناءة مرة، أو استدارة مرة، أو رعشات أرعشت لي قلبي ألف مرة..

شيك شاك شوك.. والأستاذة تمضي أمامي، كإنما هي راقصة باليه ـ ريّانة ـ طُلب منها أن تقدم فقرة رقص شرقي، وأنا مشدوه، أتأمل انحناءاتها، ثم أرفع رأسي لوجهها، فأراها غائصة في انعزالها التعبّدي، لا تتواصل إلا مع الموسيقى، ولا تعرف أين هي الآن على الأرجح.

صفقت لها كثيرًا، لما انتهت، قلت لها برافووو، وقبّلت يدها، وجلست هي لتستريح، وقرّرتُ أن أكافئها على مجهودها بوجبة غداء من صنع يدي، حيث كنت قد جهزت طبق صدور مخلية ومتبلّة لتطهى وكأنها قطع شيش طاووق. لا أعرف ما اسم الأكلة بالضبط، لكني أحبها، فقد تركت لي الحاجّة قبل السفر عدة وجبات مجمّدة. رفضَت الأستاذة أن أعد شيئًا، وطهت لكلينا، أطعمتني بيدها قطع الدجاج التي يتصاعد منها بخارها، ثم قالت لي أنها ستجهز الحلو، وأنا لم يكن لدي أي تحلية سوى النبيذ، غير أنها قالت أن معها ما يصلح للتحلية، ومجددًا دخلت للغرفة وخرجت ومعها قطعتي شيكولاتة كادبوري، كانتا متجمدتين رغم أنهما قادمتان من حقيبتها! جلست إلى جواري مجددًا، فتحت واحدة منهما، أخذت قدّاحتي وذوبت الشيكولاتة حتى تحولت لما يشبه الكاكاو، ثم فعلت أغرب شيء رأيته في عمري؛ فالأستاذة حلّت المايو ثم دعكت نهديها بالشيكولاتة السايحة، وأنا أتابعها بدهشة الأطفال، ثم نثرت ذرّات سكر أبيض على صدرها ليلتصق بالشيكولاتة السايحة، ومن ثم قالت لي : "أحمد. تعال كُل. بالهنا والشفا".

لم أُفكّر، غرائزي هي التي قادتني في أقل من فيمتو ثانية، لآكل تحليتي كلها، لحسًا وعضًّا وشمًّا ومصًّا، تلطخنا كلينا بالشيكولاتة، وتلطخت ملاءة سريري، وتلطخ قلبي أيضًا بالشيكولاتة. عند هذا الحد، كان نفوري قد تلاشى تمامًا، وحلّت محله تفاعلات كيميائة داخل جهازي العصبي جعلتني متقدًا كجمرة، كان حيواني يعوي من

الجوع، فطلبت منها أن ترافقني للسرير، وطلبت هي مني أن أنتظر مفاجأتها الثالثة.

وكانت المفاجأة الثالثة دشًا ساخنًا، فالأستاذة قررت أن تحممني من رأسي لقدمي، قالت: "اعتبر نفسك بيبي". فاعتبرت نفسي بيبي، وفوجئت بأن الطفولة المتأخرة هي أجمل ما في الحياة، الأستاذة فركتني فركًا من شعري وحتى أصابعي، بالصابون والشامبو والزيوت وبعض المستحضرات التي وجدناها في البيت من مخلّفات أختي. بعد الدش، انهارت دفاعاتي تمامًا، لم أعد أستوعب تفكيرها، هل هي رسولة الغواية ؟ هل هي حورية سماوية تتنكر في هيئة بنت مصرية عادية ؟

ذهبنا للغرفة، وكان ماكان، في غفلة مني ومن الوقت، فهمت ماهية اللذة السرمدية، وعرّفتني الأستاذة على أمور لم أكن أعرفها، كنت فعلاً كطفل. بالأمس أُلهِمت رواية، ومطلع قصيدة، نوفيللا قصيرة اسمها المبدئي "الأستاذة" وقصيدة عن رائحة النعنع البري والأعشاب في زوايا الجسد.

جرّبنا بعدها الدش المشترك مرة أخرى، ثم أعدنا الأمر ثانية، ثم أقمنا شعائر الدش المشترك مجددًا، وبعدها قمنا بالأمر مرة رابعة وأخيرة، لنخوض تجربة الدش المشترك، ثم نظرت الأستاذة في ساعتها، أعلنت أنها متأخرة، قالت أنها زارتني لأن روايتي "ناكتها في أفكارها"، قبّلتني ووعدتني أن نلتقي وغادرت !"...



الجنتلمان يفضل القضايا الخاسرة

التمرين التاسع: شيكو

قال: "عندما تبتسم تلك البنت؛ يزداد اخضرار العشب، هناك في الغابة، تزقزق العصافير الملونة وتتقافز السناجب بين فروع الأشجار المتشابكة، بينما في السماء، تبرق نجمة". قال أيضًا أن شرودها أمر من اثنين: "غيمة، أو وردةٌ تتأمل". وأكّد على أنه لم يتوقف عن التلحين والغناء منذ رآها! "شيكو" قال هذا، وأكثر، لكنني لم أهتم، لأنه يغدق مثل تلك الجمل الرومانتيكية على بنت مختلفة كل عشرة أيام، في قصص حب قصيرة وخاطفة، تشبه أغنياته القصيرة، التي يقوم فيها بكل الأدوار: المغني والملحن والموزع والكورال..

كنا في بداية الشتاء، مولعين بالتجول في أزقّة وسط البلد، ننتقل من مقهى إلى آخر، ومن بار إلى آخر، نلتقي قرب العصر في "الكوخ" الذي هو عبارة عن سرداب تحت الأرض يسكنه "شيكو"، نشرب ثمالات الزجاجات الرخيصة التي تبقت من سهرة الأمس، يغني شيكو ونردد خلفه بخجل، خجل بدأ قويًا في أيامنا الأولى، ثم ذاب بعدما فهمنا تأثير الغناء الجماعي على الروح والمزاج. بعدها، نتجه إلى وسط البلد مكدسين في سيارتي الأونو الصغيرة، وهناك، في مركز الثقل الثقافي في القاهرة، نبدأ حركتنا العشوائية في كافة المنطقة، ندخّن الشيشة في التكعيبة ثم نطلع دار ميريت ونأتنس بحضرة فنانين آخرين أكثر منا تحققًا

ورسوخًا، غير أننا سرعان مانمل أحكامهم المغلّفة ونظرياتهم الجاهزة، فنعاود التسكع في مربعنا الأثير، نأكل سندويتشات من عند القزّاز، ونلف سيجارتين في شارع السعادة خلف قصر شامبليون المحازي للتكعيبة، ثم نبحث عن مقهى آخر نكمل فيه جولاتنا المرتجلة.

وفي ذلك اليوم، الذي ذكر فيه شيكو شيئًا عن السناجب الطائرة والعصافير الفسفورية، كنت موقنًا أن الأمر لا يعدو كونه نزوة فنان بوهيمي اعتاد على انتاج قصص حب قصيرة تمامًا مثل أغانيه التي لا يتجاوز أطولها دقيقتين، وعندما سألني عن رأيي في معشوقته قلت له (ماتمثلش، آخرها تكمل شهر وتبقا كسرت الرقم القياسي)، فقال برهافة كوميدية: (انت فضائي ياصديق، من أورانوس، وشكلك ماتعرفش الحب وبالتالي ماتعرفش تحب)

***

(الكوخ)، هو اسم السرداب الذي يعيش فيه شيكو، والمكان عبارة عن شق يباغتك في جدار شبه مهدوم في آخر شارع سليمان جوهر بالدقي، تدخل من الشق لتجد أربع درجات أكلتهم الخطوات، على يمينك ستجد بابًا ضيقا يجبرك على اجتيازه بالورب، مع تجاوزك الباب الضيق، ستنبتُّ صلتك بالعالم الخارجي، العالم الفاني والمزَيّف، وتدخل مملكة الكوخ، أول ما سيلفت نظرك أن المكان رغم اتساخه وتآكل جدرانه، عبارة عن جدارية كبيرة، ممتدة على كل الحوائط، صور فيروز وزياد الرحباني ومحمد منير وبوب مارلي في الاتجاهات الأربع، مجموعة (كولاج المتشرد) المكونة من مفردات

غريبة: غطاء زجاجة كوكاكولا، فرقع لوز ميت، قصّافة أظافر، قصاصة لرباعية صلاح جاهين (النهد زي الفهد نط اندلع..)، وتر جيتار على شكل حلزوني، وتفاصيل أخرى من هذا القبيل، ثم رسومات شيكو التي تبدو مثل كوابيس طفل معاق نفسيًا، عدا عن جمله المضيئة وحِكَمِه المبهمة التي تُزيّن حيطان الكوخ مع مقتطفات من محمود درويش ووديع سعادة.

على باب الغرفة الوحيدة التي يشغلها شيكو في سردابه، كتب قائمة بشروط الحصول على عضوية الكوخ:

1. على الراغب في الحصول على عضوية الكوخ أن يكون ممارسًا لأي نوع من أنواع الفنون، أو أن يكون مفكّرًا متمردًا، أو أن يحظى بوسام التنّين.
2. احمل معك في كل زيارة قربانًا للكوخ، نحن نقبل كل التبرعات والنفحات، بدءًا بالحشيش والبيرة والخمور بأنواعها، مرورًا بالأفكار المشعّة والمساهمات الحكيمة، انتهاءً بالنكتة والصحبة الحلوة.
3. إيّاك والقلش، فالبضين والقفيل والموتور والغبي لا مكان لهم في الكوخ.
4. إبداء الرأي في فنون الآخرين ومستواهم حقّ مكفول للجميع دون ضوابط، نقبل السفسطة والحيل الكلامية، ونرحب بالحوارات التي تحسمها الجلافة، كل هذا، سيكون طبعًا، بعد أن نتناقش بجد ياولاد المرا.

5. تُقبل طلبات العضوية ويُبت في الأمور العالقة بعد عرضها على مجلس حكماء الكوخ وفقًا للهيراركية الآتية:

- شيكو: الإله العصفور
- هوّاري: نصف الإلهة نصف العصفور
- محمد علي: وزير المخدرات والبحث العلمي.
- بن همّام: روائي برتبة تنيّن
- كريم رجب: مزيكاتي برتبة تنّين

الأعضاء:

- شادي جميل ـ شاعر
- سمير رمزي ـ شاعر
- عبسة ـ مزيكاتي
- سامح عبدالله ـ مفكِّر شعبي
- محروس أحمد ـ روائي
- خلود علي ـ نحّاتة
- مِمِّح ـ مزيكاتي
- عمرو خليفة ـ شاعر
- مراد خليل ـ مزيكاتي
- محمود أبوزيد ـ مُنَظِّر عظيم

الموسيقى والشعر، والشطحات الفنية، وكل أفكارنا الطائشة كنّا نتقيأها في الكوخ، بمنتهى الأريحية، الموسيقى مع البخور ودخان الحشيش كانوا يحولون السهرة لنوع من التصوف في دين الفن

والأدب، لذلك، أذكر جيدًا أني لم أغادر الكوخ يومًا إلا وأنا في نيرڤانا مزاجية محلّقة، تختلط في رأسي الأشعار بالأغاني، وفي دمي يختلط الكحول والحشيش، وفي جيبي، حبّة سحرية سأبلعها عندما أصحو، لأواصل التحليق.

***

سهراتنا الطائشة، كانت تمتد للشركة التي يعمل فيها صاحبنا محمد عليَ في مركز مرموق، بمجرد أن ينصرف العاملون تبدأ شيطنتنا، بلاي ستيشن، وخمور إيطالية وإسبانية وفنلندية، كميات لانهائية من الحشيش، وشرائط مختلفة الألوان تحمل حبوبًا متباينة الشكل يعطي كل منها تأثيرات قوية وخسيسة: زانيكس وترامدول وتامول وصيدلية متكاملة يحرص محمد علي على الاحتفاظ بها في شنطته. كتب نتبادلها وقصائد يلقيها شعراء مغمورون على مسامع أدباء وفنانين مبتدئين وسكارى، موسيقى يسكبها شيكو في آذاننا بحضور مميز لهوّاري في الصولو. وعندما تبدأ الأشياء في اتخاذ أشكال جديدة، كنوع من الاحتفال بسهرتنا النزِقَة، نكون قد استنزفنا القناني واستنزفتْنا، فنبدأ في الانسراب واحدًا تلو الآخر، إلى ألّا يبقى سواي في سيارتي الأونو متجهًا إلى تخوم المدينة حيث أسكن.

في ذاك الشتاء، وفي ليلة لن أنساها، اكتشفنا جميعًا أننا مفلسون، وعليه قررت أن أبات عند شيكو حتى نتدبر مبلغًا لأموّن الأونو بالبنزين المفضل لديها، وجبة الرصاص والقصدير المسمّاة بنزين ثمانين، إذ كان مؤشر التانك يؤكد أني لن أمشي أكثر من نصف كيلومتر.

في سرداب شيكو، الذي نطلق عليه الكوخ، انقبض صدري وشعرت بالضيق من قِلّة الفلوس، وشعرت أن الحياة مدينة لي ولموهبتي بشيء، ببعض الحظ. لذلك، تحت جملة (الوحي حظ الوحيدين) التي كتبها شيكو بخط طفولي بائس على الجدار، كتبت (والضنك حظ المارقين) ووقّعت تحتها (بن همّام) روائي برتبة مارق.

- مالك يا صديق الحلم والمشكلة ؟

استطاعت هذه الجملة أن تربكني في كل مرة كان يقولها شيكو: الحلم، والمشكلة. كان يضعني بعفويته أمام أزمتي الكبرى، الأحلام المجهضة والمشاكل التي تتكاثر انشطاريًا، العطالة ليست أوّلها، والقحط الدائم نتيجة طبيعية، والإحساس بالفشل المترتب على المعطيات السابقة، عدا عن مجموعة أسئلة وجودية لا يصح أن تدور إلا في ذهن فيلسوف مراهق.

- مانت شايف يا شيكو، الدنيا مخبّطة ع الآخر، أنا معيش أروّح!

ابتسم شيكو، حاول أن يهوّن عليّ جيوبي الخاوية، تناول جيتاره وطلب مني أن أسد أذني وأعض بأسناني يد الجيتار، ثم راح يعزف، فسالت الموسيقى في جوفي، شعرت بها تنسرب عبر عظامي إلى جوهر روحي. قال شيكو:

- غنّي معايا.

كان يعرف حبي للغناء، ويعرف أيضًا أن صوتي لا يصلح له، تقريبًا لا يصلح لشيء، أجش خشن عريض يستقر في الطبقات العليا ويتآكل في الطبقات السفلى، يصلح للعب دور روبوت حزين يعمل في خدمة العملاء بشركة متعددة الجنسيات. لذلك حاول أن يخرجني من حرجي، وقال أنه سيتدخل ليعالج نقاط القصور، وسيغطي بصوته المناطق الواهنة في صوتي. بدأت المصطلحات الموسيقية تعبث في رأسي، قال أننا (هانسنِّك) قبل أن نغني، وأني سألتزم بـ (الجواب) وحذّرني من محاولة التمطع في المقامات الواسعة.

باغنّي وباوزّع حكاوي ببلاش
باغنّي لناس
يغنوا عليا
باغنّي ببلاش

باتوه في المعاني
واصرخ واعاني
ويادي الأماني
أبوك السّقا مات

تعدي السحابة
طريق بين صوابعي
واحس اللي فات
مجرد حاجات!

بعد بروفتين، سجّلنا الأغنية، وراح شيكو يدخل عليها بعض التعديلات التقنية، كان فرحًا بها جدًا، وكنت مندهشًا من التجربة، مأخوذًا بالمفارقة الحادة بين صوتينا، هو بعذوبته وأنا بصوتي المعدني. استخرجَ من تحت سريره زجاجة فودكا محلية رخيصة، وقدمها لي وهو يتقافز فرحًا بأغنيته الجديدة، قال:

- أحّا يا همّام يابن الأبالسة، بعد 112 أغنية، دا أول دويتو أعمله في حياتي، اللي حصل دا شيء مبهر فشخ. أحاااااا يا مان إنها اليوفوريا البهيجة.

ثم رفع الزجاجة إلى فمه وشرب دفقة كبيرة، ضرب رأسه في الجدار مرتين ثم راح يرقص ويتقافز. بوغتُّ بالحالة المزاجية الكهربائية التي كنت أراها، كان الطرب يعمل في رأسه نفس عمل الفودكا، وكنت مشغولاً بلف سيجارة الحشيش الأخيرة والتي كنت قد جنّبتها لأدخنها في غرفتي، لكن سيولة الروح في تلك اللحظة، وتلك الغلالة السكرى التي كنت أراها بعيني تغزو "الكوخ" مثل موجة ضباب قريبة من الأديم، دفعاني للتضحية بها، والاستمتاع بآخر زادنا ونحن نعيد الاستماع للأغنية، عشرات المرات، ببهجة جديدة، مع كل مرة.

***

ثم أحب شيكو بنتًا جديدة، وانتابته قشعريرة الروح التي تنتابه كل مرة، كتب لي في رسالة نصية: "صوتها يا صاحبي، ثم صوتها، عندما تتكلم تلك البنت، أسمع غناء السماء، ومثل الفراشات أرى المفاتيح

الموسيقية تطير أمامي على امتداد الرؤية، هديل حمائم بيضاء يا صديقي، وترانيم.."

ومثل المرّات السابقة، كنت واثقًا أنها إحدى نزواته القصيرة، التي تشبه أغنيتنا القصيرة، صوتان متنافران، حبٌ جارف لن تستطيع أي واحدة أن تجاريه. لكن رغم ذلك اتصلت به وعرفت أنه في مقهى "الخُن" المحشور في أحد أزقّة وسط البلد، مثل صعيدي قرر الاختفاء في زحمة القاهرة من ثأر قديم.

عندما وصلت له ترك الشيشة جانبًا وقال أنه يريد أن يتمشّى، لأن المكان لا يحتويه، أو لأنه أوسع من البراح.. رحنا لعم حسين وقضينا ربع قرش، ثم انطلقنا إلى هواري في باب اللوق، لحسن الحظ كان يحتفظ في ثلاجته بعبوتي بيرة قسّمناهما على ثلاثة أكواب، ولففنا ثلاثة جوينتات، وعندما توهّجت رؤوسنا بالدخان، وسرى الكحول في عروقنا، غنينا، ثم انخرط شيكو وهواري في معزوفة مرتجلة، وَحّدَها المزاج، وزادهتها الصحبة انسجامًا، فحرصت على تسجيل ذلك الأورجازم المزاجي البديع، كانت الموسيقى غريبة، وكان وقعها على الروح أشد وطأة من وقعها المسموع.. بنعومة الدخان استحالت إضاءة الغرفة للون الأحمر، وراحت ومضات فسفورية وزرقاء تسري في الجدران وفي مخّي على حدٍ سواء، فبدا هواري ببشرته النحاسيّة وملامحه الحادة، مثل هندي أحمر من قبائل الشيروكي، يتأمل على تبّة خضراء، تسري فيه رعشة مميزة كلما لمس وترًا معيّن، ويختلج خدّاه

بارتعاشات أشعرتني لوهلة بأنه وسيط في عملية استحضار روح واحد من الأسلاف القدامى.

اقترحت عليهما أن نسمّي المقطوعة (الهندي الأحمر يتأمل) وشغّلتها على مسجل الموبايل، فاندهشا مثلي تمامًا، وكدت أصدق أنهما كانا يسمعانها للمرة الأولى.

***

في القصر العيني، استلمت مكافأتي من مكتب الجريدة اللبنانية التي أراسلها، نظير حوار أجريته لهم مع "منصورة عز الدين". في تلك الأيام كانت المكافآت الموسمية التي أنالها من مراسلة بعض الصحف، مصدر دخلي الرئيسي.

الستمائة جنيه في جيبي أشعروني بأني سأعيش أسبوعًا جيدًا، سآكل وأُطعِم الأونو بنزينها الأثير، وسأشتري حشيش بمائة جنيه، وربما يتوفر لي الوقت لأحاول استكمال الكتابة في النص الذي كنت أشتغل عليه.

لكن المخططات السابقة تبخّرت عندما تعثرت بشيكو وهوّاري على ناصية شارع محمد محمود، قررنا التوجه للكوخ لنحضر الجيتارات، ثم اتصلنا بمحمد علي الذي دعانا لحضور "هاوس بارتي" في عوامة على كورنيش إمبابة، حاولنا الرفض في البداية، إلا أن المغريات التي عرضها علينا وزير المخدرات والبحث العلمي حملتنا على الانحشار في الأونو والتوجه إلى الحفل.

محمد علي وعدنا ببوفيه مفتوح من الأنبذة الفاخرة التي يقتنيها الطلاب الأجانب في مصر، بالإضافة للبيرة المشبّرة القادمة من البازار القريب، عدا عن قرشين من الحشيش سيتدبرهم أحد أصدقاؤه وسيشركنا فيهم، والأهم من كل ما سبق، حضور الحسناوات الأوروبيات ذوات النهود الصغيرة والربلات العظيمة، وفوق كل هذا سيكون اليوم للرقص والطرب والغناء.

في العوامة بدت الأجواء صاخبة، الوجوه متورّدة بفعل الفودكا السميرنوف، والأدخنة الناتجة عن احتراق أنواع مختلفة من المخدرات أضفت على المكان بعدًا أسطوريًا، لم يخدش هذه الحالة سوى اكتشافنا أن البوفيه ليس مفتوحًا. قال شيكو:

- بص ياض بص. دي بابل القديمة، زنوج وخواجات وبط بلدي، أحااا يا بشر.. تعالوا.

كنا في مرحلة جس النبض، اجتمعنا في زاوية الطابق العلوي من العوامة، ورصدنا بدقة أماكن توزيع البيرة والمأكولات، وأرسلنا هواري في جولات سريعة للطوابق الدنيا لمسح المكان وتحديد إحداثيات المباهج الموعودة، كما استقطبنا بعض الأصدقاء القدامى والعابرين لتشكيل نواة كتيبة سنكحة معتبرة، تستطيع قنص أكبر عدد من الأطايب، وزعنا المهام علينا كالتالي: محمد علي يجلب الحشيش وأوراق اللف، هواري لاقتناص أي زجاجة ويسكي أو عرق أو نبيذ، شيكو وحسنين توليا تجميع أكبر عدد من البيرة، بينما اقتصر دوري أنا ومحروس على تجميع المشهيات والمزّة.

وبعد ربع ساعة عدنا لموقعنا بالكثير من الغنائم وبخسائر محدودة، قرش حشيش وسبع ورقات بفرة، نصف زجاجة جاك دانيلز، وخمس عبوات بيرة. بينما فشلت أنا ومحروس في جلب أي مزّة، كما تخلّف حسنين عن العودة بعدما تعثّر في بنت أسترالية سكرانة وشبقة، بطحها في الحمّام ولم نره بعدها، كانت تلك خسائرنا.

افترشنا الأرض وشرعت السجائر الملفوفة في دورتها علينا، بينما منح القديس جاك دانيلز كل منا كأسين محترمين، شاركا مع لطشة النسيم النيلي في توهُّج شيكو في أغانيه القصيرة بمساهمة من هوّاري في الصولو. بينما شكلنا أنا ومحمد علي ومحروس جوقة سكرانة تمنح الأغاني لمسة نشازية محببة للنفس. تجمع حولنا بعض الشباب، وراح بعض السكارى يرقصون بشكل غير متناسق وصاخب، بينما انفرد شاب زنجي ببنت مصرية جميلة ودعك تاريخها بوس وتقفيش. ساد جو من الطرب، وتجلّى شيكو متناغمًا مع هوّاري، وانهالت التحيات علينا، زجاجة عرق لبناني انبثقت أمامنا فجأة، ومسك كل منا جوينت في يده، لا أعرف من أعطاهم لمن وكيف استقروا في أيدينا.. من بعيد تراقص خيال حسنين أمامي مع صديقته الشقراء ثم اختفيا. وفي حِجْري، تقيأ محروس كل ما في معدته.

لوهلة، فكّرت في أن أشج رأسه بزجاجة البيرة عقابًا على توسيخه لثيابي، لكني ترددت عندما رأيت حبتين سليمتين لم تهضمهما معدة صديقنا، فكّرت أنه بوسعي غسلهما ثم بلعهما، لكني احجمت وأنا أرى الأعين معلّقة علينا، خاصة وأن شيكو قد توقف

عن الغناء، وحاول أن يقف ليمد لنا يد العون غير أنه ترنح بعيدًا. أما محمد علي فقد اختفى فجأة بينما ظل هواري يضحك علينا منذ أن قال محروس (أووععع)، وحتى يومنا هذا.

لا أذكر كيف افترقنا يومها كل في طريقه، فقط أذكر أني مجددًا وجدت نفسي في الأونو، على الطريق الدائري، متوهّجًا وخفيفًا، مثل تلك الحشرة بنت المتناكة التي تضيء مؤخرتها في الليل، لتؤنس السكارى والمنبوذين.

***

هل أقول أن شيكو أحب واحدة جديدة؟ وكتب أغنيات أخرى لها ولحنها وغناها، وتغزل في فاتنته الأحدث، وكالعادة، حكى لي كيف يشعر معها! الحقيقة أنه فعل ذلك، وكالعادة أيضًا لم أعر الأمر اهتمامًا، فطالما يكتب صاحب الكوخ أغنياته ويصدح بها أنا مطمئن عليه، طالما احتفظ بمصطلحاته وقال لي: يا صديق الحلم والمشكلة، فلا بأس.

والحقيقة أنا لا أعرف حتى اللحظة، لماذا لم تجمعني مع شيكو مواقف جديرة بالذكر إلا في الشتاء، وحتى آخر موقف جمع بيننا قبل أن نكف عن أن نكون أصدقاء، كان في الشتاء، والذي حدث أن شيكو، قرر برومانسيته المرهفة أن يجهز مفاجأة لفتاته الجديدة، مفاجأة فاجأتنا نحن قبل أن تفاجئ الآخرين، فشيكو قرر أن يغني للبنت، تحت شرفة منزلها، وقرر أن نكون نحن - أصدقاء الحلم والمشكلة - كوراله، ولم يترك لنا مجالاً للتراجع، قال: انت معايا أو ضدي، ولفحنا زجاجتي فودكا محليتين، كانتا كفيلتين بأن يقول له

هوّاري: إذهب أنت وجيتارك فغنيا، إنا معكما منشدون.. وتكفل الوعي الجمعي السكران، بأن يوافقه الشباب على اقتراحه، وحتى عندما أبديتُ تحفظي على المقترح، باغتني:

- إنت روائي.. صح؟
- صح.
- بتحب بورخيس؟
- طبعًا.
- مش هو اللي قال الجنتلمان يفضّل القضايا الخاسرة؟
- هو.
- هتيجي؟
- هاجي.

تعالت تصفيقات الشباب، وقُرِعت الكئوس، اشتعلت السجائر الدوّارة، وأدينا عدة بروفات على أغنية "يا بلح زغلول" التي قرر شيكو إهداءها لفتاته على الهواء مباشرة، تحت شرفة منزلها في حلوان.

ركبنا الأونو، وتقاسمنا ثمن البنزين، ثم قدت السيارة وفقًا لتوجيهات شيكو، في الطريق أشعلنا جوينت جديد، وألقى سمير رمزي قصيدة، ثم أشعلنا جوينت آخر، و أجرينا بروفة أخيرة على الأغنية، وفي غفلة منا، وصلنا. كان منظرنا ونحن نتقدم ككتيبة فدائية في ذلك الحي الشعبي مثيرًا للريبة، خاصة ونحن نحمل الجيتارات ونترنح في حالة سكر بيّن، ما دفع شباب الحي ليرمقونا بارتياب، فيما وقف بعض أصحاب المحلات أمام محلاتهم للمراقبة.

تحت شرفة المنزل الواقع في الطابق الثالث تمترسنا، جهز شيكو وهوّاري الجيتارات، بينما وقفت أنا ومحمد علي وسمير رمزي خلفهما مباشرة منتظرين إشارة البدء من قائدنا المظفّر، الذي اتصل بفتاته وطلب منها أن تخرج للبلكونة.

لاحظت أن بعض الصبية يقفون ليشاهدونا وكأنهم ينظرون لحواة سيقدمون عرضًا، كما لاحظت تزايد عدد الأهالي الذين يرقبوننا من أماكنهم، لكن كل ذلك لم يمنعني من الصدح بأعلى صوت بمجرد أن رأى شيكو حبيبته واقفة في شرفتها، وقال: go

يابلح زغلول

ياحلاوتك يا بلح

يا بلح زغلول

تسمّرت البنت في البلكونة من هول الصدمة، بينما واصلنا غناءنا كالمسرنمين..

الله أكبر

عليك يا سكر

يا جابر إجبر

زغلول يا بلح

لمحت بصعوبة مع نهاية المقطع الثاني رجلاً أصلع يصفع حبيبة شيكو على قفاها، بينما ظلت هي تردد: ماعرفوش والله. لكني واصلت، رغم ارتباكي:

يا زرع بلدي
عليك يا وعدي
يا بختي يا سعدي
زغلول يا بلح

قبل أن نكمل آخر كلمة في الكوبليه، تخايلت، على يميني، بيد تسحب محمد علي من رقبته وتبطحه على الأرض، وعندما نظرت ملء عيني وتأكدت أنه يتعرض بالفعل لضرب مبرح، لم ارتبك، خاصة وقد رأيت مجموعة من الرجال يهرولون تجاهنا، لذلك؛ ركضت فورًا، قبل أن يتوقف شيكو عن الغناء، وقبل أن يتمكن هوّاري وسمير رمزي من الاشتباك مع الأهالي، الذين فرموا أصدقائي.. تمامًا.

في الواقع، هربت، ركضت بأقصى سرعتي، مخترقًا أزقة ضيقة، وشوراع غير مسفلتة، حاملاً مفتاح السيارة في يد، وممسكًا بيدي الأخرى حزام البنطلون الذي أوشك على النزول، مع تجاهل تام لنظرات الأهالي.

وبعد دقيقتين ربما، وبفعل دفقة الإدرينالين في عروقي، وبالكثير من الذكريات المؤلمة والتوقعات المبهمة حول مصير أصدقائي

المغدورين، وصلت للسيارة، وفي أقل من دقيقة كنت قد وصلت للكورنيش.

***

بعد أيام، عرفت أن الأهالي تركوا هوّاري ومحمد علي وسمير رمزي أقرب للجثث الهامدة، وأخذوا كل مافي حوزتهم من أموال وساعات ومحافظ وحتى الجيتارين، الأدهى، أنهم رفضوا أن يتركوا شيكو، الذي انقطعت أخباره ليومين، قبل أن يتدخل أهله ويستلموه من أهالي حلوان ، بعشرة أصابع مكسورين!

من البديهي القول أني لم أقرب الكوخ ثانية، ولم أتصل بشيكو مرة أخرى، أما هوّاري ومحمد علي وسمير رمزي، فقد أخذوا صف شيكو، واتهموني بالجبن والخيانة، خاصة وأني هربت مذعورًا قاصدًا البيت ولم أحاول حتى أن أبلغ أهلهم لينقذوهم. وعرفت لاحقًا أن اسمي حُذف من مجلس حكماء الكوخ، وغنّى شيكو بعد أن التأمت كسور أصابعه أغنية عني، يقول مطلعها:

ركّز على الأحباب، واحرص على الصحبة

ممكن تشوفه صديق، يطلع سليل قحبة.

الفهرس

صدر للمؤلف:

قاهري – رواية – 2008 – نفرو للنشر

أوجاع ابن آوى – 2011 – ميريت للنشر


أحمد مجدي همام
افترشنا الأرض وشرعت السجائر الملفوفة
في دورتها علينا بينما منح القديس جاك دانيلز
كل منا كأسين محترمين تشاركا مع لطشة النسيم
النيلي في توهج شيكو في أغانيه القصيرة بساعة
من هوائه في الموتور بينما شكلنا أنا ومحمد علي
ومحروس جوقة سكرانة تمنح الأغاني لمسة
نشازية محببة للنفس. تجمع حولنا بعض
الشباب، وبات بعض السكارى يرقصون بشكل
غير متناسق وصاخب بينما انفرد شاب زنجي
ببنت مصرية جميلة وبعك تاريخها بوس
وتفعيص وساد جو من الطرب، وتجلى شيكو
متناغماً مع عوازه، وانهالت التحيات علينا،
زجاجة عرق لبناني إنبثقت أمامنا فجأة ووسط
كل منا جوينت في يده، لا أعرف من أعطاهم لنا
وكيف استقروا في أيدينا. من بعيد تراقص خيال
حسنين أمامي مع صديقته الشقراء ثم اختفيا،
وفي حجري، تقيأ محروس كل ما في معدته.
تصميم الغلاف: عمرو حميد
روافد
للنشر والتوزيع